خطاب الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير: من ١٢١٥/ ١٨٠٠م إلى ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م - رسائل آل الحفظي الشعرية أنموذجاً.

د. محمد بن ظافر القحطاني

أستاذ الأدب العربي المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها- جامعة الملك خالد بأبها

خطاب الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير: من ١٢١٥/ ١٨٠٠م إلى ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م - رسائل آل الحفظي الشعرية أنموذجاً.

د. محمد بن ظافر القحطاني
أستاذ الأدب العربي المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها- جامعة الملك خالد بأبها

تاريخ تقديم البحث: ٨/ ١١/ ١٤٤٥هـ تاريخ قبول البحث: ٢٦/ ٣/ ١٤٤٦هـ

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالرسالة الشعرية وخطابها عند شعراء منطقة عسير في الفترة (١٢١٥هـ - ١٢٨٨هـ) من حيث: أهميتها وأهدافها، وأسبابها، وبعض الجوانب الفنية فيها من خلال الإجابة عن سؤال رئيس وهو: كيف تشكل خطاب الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير؟ وقد استعرضت الدراسة عددًا من النماذج ودرست خطابها ومكوناته التلفظية من المرسل والمستقبل والرسالة والمقام جاعلةً من الرسالة ومضامينها مُرتَكَزاً لذلك، و مستفيدةً من معطيات التداوليّة وتحليل الخطاب مع ما تفرضه طبيعة المدونة الشعرية التي تتداخل مع المناهج الأدبية الأخرى كالمنهج الفني والتاريخي وخلصت إلى عدد من النتائج ومن أهمها: أن الرسالة الشعرية عند شعراء عسير في الفترة المدروسة قد برزت فيها عناصر الخطاب بوضوح مع ما يستلزمه مقام التلفظ في لغة رصينة وموسيقا عروضية منطلقة وصورة أدبية جيدة تقترب من طريقة الشعر العربي في عصور ازدهاره دون الوقوع في بعض عناصر الضعف التي كانت منتشرة في شعر تلك الفترة. وتكونت الدراسة من مقدمة وتمهيد وعدد من المحاور ثم النتائج وقائمة بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الخطاب – المقام – الرسالة الشعرية – شعراء عسير – الشعر السعودي.

Discourse of Poetic Messages of Asir District Poets from 1800 (1215) to 1871 (1288)

Dr. Mohammad bin Zafer Al-Qahtani

Associate Professor of Arabic Language and Literature - King Khaled University - Abha

Abstract:

This study aims to define poetic messages and their discourse among the poets of the Asir region in the period (1215 AH - 1288H) in terms of their importance, objectives, reasons, and some of their technical aspects by answering a main question: How was the discourse of the poetic messages formed among the poets of the Asir region? The study reviewed a number of examples and studied their discourse and the verbal components of the sender, receiver, message and situation. The study benefited from the data of pragmatics and discourse analysis with what suits the nature of the poetic corpus that overlaps with other literary approaches such as the artistic and the historical approaches .

The study concludes that the poetic message among the poets of Asir in the studied period clearly featured the elements of discourse with what the situation of speech requires in a solid language and a free metrical music. This was done in good literary images that approach the method of Arabic poetry in its eras of prosperity without falling into some elements of weakness that were widespread in the poetry of that period. The study consists of an introduction, a preface, a number of axes, then the results and a list of sources and references

Keywords: Discourse - situation - poetic message - poets of Asir - Saudi poetry

المقدمة:

كانت الرسالة الشعرية في هذه الفترة الزمنية (١٢١٥- ١٢٨٨هـ) من الأنماط الشعرية الواضحة عند شعراء عسير خاصَّةً رسائل المشايخ من آل الحفظي إلى أئمة الدعوة السلفية – رحمهم الله جميعاً- وإلى عدد من أبرز شعراء تلك الفترة في نجد ومنطقة عسير وجازان واليمن، وقد تناولت تلك الرسائل جوانب عديدة: سياسية، واجتماعية، ودينية، وشخصية، وأخوية. وأضاءت جوانب مهمة في تاريخ منطقة عسير السياسي، والثقافي، والاجتماعي في العصر الحديث.

والرسالة الشعرية خطاب موجَّه من الشاعر إلى متلقٍ محدد، ومع ذلك فالشاعر يراعي متلقين آخرين غير محددين؛ ليعيشَ نصُّه أمداً، ولا يكون أجله ببلوغ الرسالة إلى متلقيها الرئيس[١]؛ إضافةً إلى أن الرسالة لدى شعراء عسير في تلك الحقبة الزمنية تحمل وظائف نفعية أخرى.

ولم أجد – حسب علمي – دراسة مستقلة حول خطاب الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير في هذه الفترة الزمنية.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالرسالة الشعرية وخطابها عند شعراء منطقة عسير من حيث: أهميتها وأهدافها، وأسبابها، وبعض الجوانب الفنية فيها من خلال الإجابة عن سؤال رئيس، وهو: **كيف تشكَّل خطاب الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير في الفترة (١٢١٥هـ – ١٢٨٨هـ)؟** ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الأسئلة، منها:

- ما أهم الأسباب التي دفعت شعراء منطقة عسير لكتابة الرسالة الشعرية؟

---

[١] – انظر، ريهام محمد القاضي، تداولية النص الشعري (دراسة تطبيقية على مقطوعة ابنة الليل لشلومو بن جبيرول)، مجلة رسالة المشرق، جامعة القاهرة، مج٢٩، ع١،٤، ٢٠١٤م، ص٦٣ – ١٠٠.

- ما أهم الموضوعات التي تناولتها الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير؟
- هل هناك جوانب فنية تميَّزت بها الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير؟

وقد قامت الدراسة على نماذج من النصوص الشعرية التي يشير أصحابها إلى أنها كُتِبَت بوصفها رسائل، سواءً كانت رسالة يبتدئها الشاعر أم رسالة يجيب بها على رسالة وصلت إليه. وتعالج الدراسة تلك النماذج وصفاً وتحليلاً مستفيدةً من معطيات التداوليّة وتحليل الخطاب مع ما تفرضه طبيعة المدونة الشعرية التي تتداخل مع المناهج الأدبية الأخرى كالمنهج الفني والتاريخي والاجتماعي. وجاءت الدراسة كما يأتي:

التمهيد:

يعد أدب الرسائل مجالًا واسعًا من مجالات الكتابة وقد عرفته مختلف الثقافات القديمة وازداد انتشاره في الآداب الغربية الكلاسيكية والحديثة، وكذلك في الأدب العربي قديمه وحديثه. ولم تنفك أجناسه وأساليبه تتطور بتطور أنواع التواصل المكتوب. وتشترك الرسائل –بصورة عامة– في مفهوم التلفظ الرسائلي الذي مكَّنَ النقاد – عند توظيفه–من التمييز بين خطاب الرسالة وبقية الخطابات الأدبية الأخرى وبين منشئ الرسالة وبين مؤلفي الفنون الأدبية الأخرى. فالتداوليون درسوه (أدب الرسائل) باعتباره عملاً تواصليّاً ينهض على جملة من القواعد التفاعلية التي توجِّه مقاصد المتخاطبين، كما أسهمت نظريات الأجناس في تنزيل هذا الأدب منزلته بين الأجناس القريبة منه كاليوميات والمذكرات والسيرة الذاتية. وهي أجناس تشترك في سمات أجناسية كتطابق المؤلف والراوي والبطل في السرد الذاتي ومشاكلة الخبر للواقع في الرسائل ذات الصبغة التاريخية. وقد حملت هذه السمات المشتركة كثيراً من النقاد على تناول الرسائل ضمن نظام أجناس السرد الذاتي أو ضمن أجناس أدب الوقائع فكانت نتائج ذلك أكثر خصوبة وثراء مما آلت إليه البحوث التي عزلت هذا الأدب عن الأنظمة التي نشأ فيها.[1]

مفهوم: الخطاب – الرسالة الشعرية:

الخطاب بوصفه منهجاً في التحليل استقبله النقد العربي من الغرب وهو ما يعبر عنه بـ (Discourse)، وهو لفظ أصله لاتيني يعني الحوار. وقد ورد في لسان العرب أن الخطاب "مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالخطاب مخاطبةً ، وخطاباً ، وهما

[1] – انظر، صالح بن رمضان: "الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم – مشروع قراءة شعرية–"، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٧–٢٤.

يتخاطبان"[١]. ومن حيث الاصطلاح يمكن النظر إلى الخطاب بوصفه استراتيجية في التلفظ. فهو نظام كُليّ مركب من عدد من الأنظمة التوجيهية والتركيبية والدلالية والوظيفية[٢]، تضبط استعماله "قواعد وعادات لغوية مرعيَّة متعارف عليها، وتنتج دلالات ومعاني تنتقل من مرسل إلى مستقبل في حقول معرفية وسياقات ثقافية واجتماعية"[٣]؛ وبهذا فالخطاب فعلٌ تواصليٌّ بين المرسل والمخاطَب يتخلله شبكة من النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية.

وأما الرسالة (Message) فقد جاء في معجم مقاييس اللغة[٤] في مادة: (رسل) ما يأتي: الراء والسين واللام أصلٌ واحدٌ مطّردٌ مُنْقاس، يدلُّ على الانبعاث والامتداد .فالرَّسْل: السَّير السَّهل. وناقةٌ رَسْلَةٌ: لا تكلِّفك سِياقاً وناقة رَسْلَةٌ أيضاً: ليِّنة المفاصل. وشَعْرٌ رَسْلٌ، إذا كان مُسترسِلًا. والرَّسَل ما أُرسِل من الغَنَم إلى الرَّعي". وفي لسان العرب[٥] "وجمع الرِّسالة الرَّسائل. قال ابن جَنْبة :التَّرسُّل في الكلام التَّوقُّر والتفهمُ والترفق من غير أَن يرفع صوته شديدًا. وقد توسعت المعاجم في هذه المادة اللغوية من حيث معانيها الحسية والمجازية وتطور دلالتها، إلا أنه يتضح فيها (رسل) ثلاثة مجالات، أولها: الامتداد والاتساع. وثانيها: اللين والسهولة وثالثها: التمهل والترفق. وجاء الفعل "أرسل" ليفيد ذلك كله فيفيد الإطلاق من

---

[١] – ابن منظور، لسان العرب: مادة (خطب).

[٢] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، عناوين، القاهرة، ٢٠٢٣م، ص١٢٧.

[٣] – بهاء الدين محمود مزيد، أدوات تحليل الخطاب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج١/ ٢٥، ع٩٧، سبتمبر/٢٠١٦م، ص ٩٠– ١٣٤.

[٤] – ابن فارس: "معجم مقاييس اللغة"، مادة(رسل).

[٥] – ابن منظور، "لسان العرب"، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ. مادة: رسل.

القيد والتوسع وتوجيه الشيء من مكان إلى آخر. وما "الرسالة" إلا بعث الكلام من مكان إلى آخر[١]. وهي "تحميل جملة من الكلام إلى المقصود بالدلالة"[٢].

أما في الاصطلاح فقد ارتبطت "الرسالة" بديوان الرسائل الذي كانت ترسل منه إلى الأمصار المتعددة ويتولى كتابتها كتاب متخصصون يعيَّنون من قبل الحاكم. واستقر عند النقاد ومؤرخي الأدب أن الرسالة هي ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل ومؤثر ويبعثها إلى طرف آخر[٣]. فيشير مفهوم "الرسالة" عند إطلاقه إلى ما يكتب نثرًا أما عند كتابتها (الرسالة) شعراً فإنها تقيد بالوصف؛ لتكون "الرسالة الشعرية"، وهي القصيدة التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب يبعثها إلى غيره[٤] فيرد المرسل إليه بقصيدة يجيب فيها صاحبه. وهذه النصوص الشعرية التي يتبادلها الشعراء فيما بينهم متفاوتة في الطول متعددة الأغراض وذلك يشمل الخطاب والجواب معًا[٥].

---

(١) – انظر، المعاجم المذكورة آنفا، مادة: رسل. وانظر، صالح بن رمضان: "الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم – مشروع قراءة شعرية–"، ص١٠١.

(٢) – انظر، أيوب بن موسى الكفوي: "الكليات"، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٤٧٦. وانظر، احمد مطلوب: " معجم النقد العربي القديم"، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط،١٩٨٩هـ، ج٢، ص١٤.

(٣) – انظر، فايز القيسي: "أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري"، ص٧٨.

(٤) – انظر، مجدي وهبه وكامل المهندس: "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص١٧٧.

(٥) – انظر، سعاد عبد الله أبو ركب: "الرسائل الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري"، (رسالة ماجستير)، جامعة مؤتة، ٢٠٠٥م، ص٩

ولما كانت الرسالة الشعرية فعلاً تواصليّاً (تخاطبيّاً)، فمن الضروري الإشارة إلى أهم عناصر العملية التخاطبية وهي[1]:

١- المرسل: تنتج عنه وظيفة تعبيرية، وهو الركن الأساسيّ في العملية التواصلية؛ لأنه منشئ الرسالة وله أوضاع متعددة تمليها عليه طبيعة خطابه أو نوعه. ويتميز الخطاب الأدبي والشعري على وجه الخصوص بتقنياته ولغته وامتياحه من الخيال.

٢- المرسل إليه: تنتج عنه وظيفة إفهامية. فهو الذي يستقبل النص ويمنحه فهماً؛ إذ يقوم بفك التشفير والتفكيك لأجزاء الرسالة سواء كانت كلمةً أم جملةً أم نصّاً.

٣- الرسالة: ينتج عنها وظيفة شعرية. وهي أهم عنصر في العملية التخاطبية وهي في مدونة دراستنا هذه رسالة مكتوبة شعرًا.

٤- القناة: ينتج عنها وظيفة انتباهيه.

٥- السنن: ويقصد به النظام اللغوي المشترك بين المرسِل والمرسَل إليه، فلا بد أن يكون بين المرسل والمستقبل هذا الاشتراك؛ لتتم العملية التواصلية أو التخاطبية، فنجاح ذلك متوقف على هذا النظام المشترك وينتج عنه وظائف عديدة تتجاوز ظاهر اللغة إلى ما وراءها بقصد الفهم والتفسير وإدراك مواطن الجمال، وذلك هو التأويل وتحليل الخطاب الأدبي. وقد كانت الرسالة الشعرية عند شعراء عسير رسالة مكتوبة على نظام القصيدة العربية القديمة ملتزمة لغتها وإيقاعها ونظامها التخييلي. وكان ذلك هو المتعارف

---

[1] - انظر، رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨م، ص ٢٥- ٣٠.

عليه في زمانها حيث يجوّد الشعراء وخاصة العلماء منها والمشايخ قصائدهم ويربطونها بمنهج القدماء؛ لإظهار المقدرة اللغوية والفنية وسعة الرواية والسيطرة على الأساليب والقوافي والصور.

٦- السياق: ينتج عنه وظيفة مرجعية.

وتشيع الرسالة الشعرية عند شعراء منطقة عسير مرتبطة بالتاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي السائد في تلك الفترة: من ١٢١٥هـ /١٨٠٠م إلى ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م. وفي هذه الفترة الزمنية كان الحدث الأبرز والموضوع المهم هو علاقة منطقة عسير بالدولة السعودية الأولى، وبالدعوة السلفية التي بدأت على يد الإمامين محمد بن سعود[١]، ومحمد بن عبد الوهاب[٢] - رحمهما الله – وأكمل مسيرتها أبناؤهم. وقد اتسع شأن الدولة والدعوة وتعددت جوانبهما كما تعددت المواقف السياسية والشعبية منهما. كل ذلك أثار الجدل بين أطراف عديدة في موضوعات سياسية ودينية متعددة؛ مما نتج عنه حركة علمية وأدبية. وكان الشعر حاضراً في كل ذلك، خاصةً الرسالة الشعرية. والرسالة هي اهم عناصر العملية التخاطبية؛ لأنها الهدف الذي من أجله أنشأ المرسل رسالته وهي ما تدفع متلقيها إلى التفاعل معها.

---

[١] - محمد بن سعود (١١٠٠ – ١١٩٧هـ) أول أئمة الدولة السعودية الأولى وحكامها، أقام بالدرعية وكان متدينا شجاعًا، وقد رعى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى قويت وانتشرت. انظر، أحمد بن محمد الحفظي: "عبق الراحلين- تراجم موسعة لبعض علماء آل الحفظي-، دار الطرفين، الطائف، د.ط، د.ت، هامش ص٣٥.

*** ملاحظة ستكون الإشارة إلى مصادر الدراسة باسم الكتاب في الإحالات اللاحقة؛ نظرا لتشابه أسماء الشعراء والمؤلفين والمحققين.**

[٢] - محمد بن عبد الوهاب (١١١٥- ١٢٠٦هـ) ولد في العيينة وطلب العلم، ورحل في طلبه إلى الحجاز والمدينة المنورة والبصرة. أخذ على عاتقه الدعوة السلفية وناصره الإمام محمد بن سعود وكان النصر لهما. "عبق الراحلين"، هامش ص٣٥.

وقد انعكست هذه الأهمية في الرسالة الشعرية لدى شعراء عسير سواء كان ذلك في مضامينها أو إلى من توجه إليه وكذلك في لغتها ومقاماتها التخاطبية، وتسير هذه الدراسة انطلاقًا من هذه الأهمية حيث يقف الباحث عند الرسالة في ذاتها من حيث أهم موضوعاتها وأغراضها الفنية وأسباب كتابتها فعادةً ما يذكر الشاعر سبب إنشاء الرسالة ثم يكون لكل رسالة موضوعها الخاص الذي تستطرد الرسالةُ إليه بعد ذكر السبب الباعث لها، ويتضح ذلك فيما يأتي:

أولا: أسباب كتابة الرسالة الشعرية

تتعدد الأسباب التي تدفع الشاعر لكتابة رسالته بالشعر. وغالبًا ما يصرح الشاعر في قصيدته بأنه ما كتب هذه القصيدة إلا لكذا أو كذا من الأسباب التي تمنح المتلقي انطباعاً بأن القصيدة ما هي إلا رسالة لها مرسل معين ولها مستقبل محدد وتحمل مضامين واضحة يحتاج في كثير من الأحيان إلى الرد عليها؛ ومن هنا كان خطاب الرسالة يحكمه منطق التبعية المتبادلة بين عناصره المختلفة: ثنائية المرسل/المخاطب ، وثنائية اللفظ / المعنى، وثنائية المقام/ المقال[1].

لقد كان لدى الشاعر الأسباب التي تدعوه إلى إرسال رسالته، وتتراوح هذه الأسباب بين أسباب عامة وأخرى خاصة أو شخصية. وهذه الأسباب وإن كانت جزءًا من مضامين الرسائل الشعرية فإنَّ الدراسة تكشف عن أن ذكر هذه الأسباب يكون تمهيداً وتقديماً وتعليلاً من قبل المرسل للدخول في موضوع آخر يهمه، فيبسط فيه القول. وتوضيح تلك الأسباب فيما يأتي:

[1] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ٢٥.

١- الأسباب العامة:

تكشف القضايا العامة في الرسائل الشعرية عن تفاعل الشعراء مع الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية ومع الشخصيات العامة التي قد يصعب على الشاعر اللقاء بها[١]، وذلك فيما يتعلق بالأحوال العامة التي تهم الناس. فمن ذلك النصيحة والتبليغ، وكذلك إظهار الولاء والنصرة والتأييد للدولة السعودية وللدعوة السلفية، وتشجيع الناس ودعوتهم للدخول في هذه المرحلة الجديدة في عصرهم، وتوضيح ذلك كما يأتي:

أ- النصح والتبليغ:

النصيحة أحد الأسباب المهمة لكتابة الرسالة الشعرية، وميدان النصيحة واسع لكل شؤون الدين والدنيا، والحث على الإصلاح وإقامة الحياة الطيبة للناس وما ذلك إلا باتباع العدل وإقامة شعائر الدين، يقول محمد بن أحمد الحفظي[٢]:

ووصيتي لكم يا سعود[٣] إمامنا وأنا المقصر والجهول التالي[٤]
أن تستقيم على الكتاب وسنةٍ وتقيم وزن القسط في الأقوال
وتقيم دعوة شيخكم وأبيكم وتجدد الدين الصحيح البالي

---

[١] – انظر، سعاد عبد الله أبو ركب: "الرسائل الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري"، ص٨٧.

[٢] – هو الشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر الحفظي (١١٨٧– ١٢٣٧هـ)، ولد في بلدة رجال ألمع، تلقى علومه الأولية على يد والده، ثم رحل إلى اليمن لطلب العلم ثم عاد إلى بلده للتعليم ونشر الدعوة السلفية. انظر ترجمته في كتاب: محمد بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، "نفحات من عسير "، تنسيق وإخراج ونشر: عبد الرحمن بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، مطابع عسير، أبها، د. ط، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٤م، ص٤٤–٤٥.

[٣] – المقصود هنا الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد أحد أئمة الدولة السعودية الأولى، ولد بالدرعية (١١٦٣–١٢٢٩هـ). كان فارسًا حازمًا شجاع. انظر، "عبق الراحلين"، هامش ص٣٤.

[٤] – "نفحات من عسير "، ص٧٧. وانظر، الحسن بن علي الحفظي، "مجموع في تاريخ عسير"، تحقيق: علي بن حسن الحفظي وعلي عوض آل قطب، نادي ابها الأدبي، ط١، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ص ٩٨.

متفقداً حـال الرعـايا مشفقاً من غير مـا عنف ولا إهمال

فالشاعر هنا يقول صراحة: إنه يوصي الإمام – مع اعترافه بالتقصير والجهل– بالتزام العدل في الرعية وإقامة شعائر الدين والاجتهاد في مناصرة الدعوة السلفية التي بدأها الأئمة من آل سعود والإمام محمد بن عبد الوهاب — رحمهم الله جميعا– كما يوصيه بتفقد أحوال الرعية من سوء الأحوال الدينية أو الدنيوية بالرفق والحسنى والبعد عن العنف والشدة. وقد يعمد الشاعر إلى توجيه الخطاب إلى ولي الأمر بالوصية والنصيحة فيما يرى فيه الخلاص والنجاة، فمن ذلك:

وإنني أوصيك يا أميرنا بما به الخلاص في مصيرنا[1]

محبة فيك وأرجو خيرا يوم تسير الشامخـــات سيرا

فالشاعر يرجو للإمام كل الخير ويرغب في تبصيره بما هو من واجبه فيه النصيحة وما ذلك إلا محبة وطلبًا للخير والأجر في يوم القيامة "يوم تسير الشامخات سيرا". ومن الملاحظ أن الشاعر وهو أحد العلماء المؤيدين للدولة السعودية في السياسة الدينية والدنيوية. ويرى أن من واجبه باعتباره أحد علماء الدعوة التجديدية أن ينصح ويشير ويذكِّر ولي الأمر انطلاقا من المشاركة بالرأي مع حفظ المقام بين المرسِل/ الشاعر الذي يعترف بتبعيته وتقصيره وبين المرسل إليه ولي الأمر الذي يخاطبه بـ "إمامنا" فهو يذكِّره بإمامته الدينية والسياسية.

[1] – "مجموع في تاريخ عسير"، ص١٢٢.

وقد تكون الرسالة الشعرية لطلب النصيحة خاصة إذا كانت المراسلة بين عالمين أو من طالب علم إلى عالم، ومن ذلك ما بعثه محمد بن أحمد الحفظي إلى الإمام محمد بن علي الشوكاني[1]، حيث يقول:

وإني يا إمام العصر شيخي عجزت عن احتيال في ارتحال[2]

.. ..

فجد لي بالوصال وانتخب لي معـالي ما لديك من المعالي

وطول في الإفادة منك فضلًا ووسـع يا حبيبي في المقال

وأحسن في الإجازة إن فيهـا مجـازًا لارتباطي واتصـــالي

فالشاعر هنا يعتذر عن عدم قدرته على الذهاب للشيخ؛ لعجزه عن السفر إليه، ويطلب منه أن ينتخب له ما يراه جديراً لتعليم الناس ويطلب منه التوسع في الإيضاح والشرح كما يطلب منه إجازته له في تدريسه وتعليمه للناس.

ومن الأسباب الباعثة على كتابة الرسائل الشعرية النصيحة بإيقاف النزاع وترك الحرب التي لا طائل من ورائها والمنتصر فيها والخاسر سواء؛ لأنّ الحرب والخلاف لا يأتي بخير.

إلى متى هكذا والحرب تستعر وما بين أظهـركم يا أيها الغرر[3]

.. ..

ولست تلتذ إن أدركتهـا أبدًا بل شأن محرزها التنغيص والسهر

---

(1) – محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣– ١٢٥٠هـ) ولد في شوكان القريبة من صنعاء ونشأ نشأة علمية درس علوم الشريعة واللغة العربية، وله مؤلفات كثيرة منها "فتح القدير". انظر، "عبق الراحلين"، هامش ص١٢٥– ١٢٦.

(2) – المصدر السابق، ص١٢٩.

(3) – "نفحات من عسير "، ص١٠٧.

وهذه النصيحة يبعثها الشاعر لحل النزاع الذي دار بين شخصيتين كبيرتين من الأشراف، هما الشريف حمود[١] بن محمد وابن أخيه علي بن حيدر[٢] فيدعوهما لنبذ الفرقة والصلح والاجتماع على الألفة والمحبة ويذكرهما بالعاقبة الوخيمة للحرب مهما كانت المكاسب التي قد يجنيها أحدهما من الآخر، فما هي إلا حطام من حطام الدنيا يجدر بالمرء أن يعرف حقيقتها. ومن هذه النماذج يتضح مقام المرسِل مقام التبعية والولاء، وهو مقام إدراكيّ مشترك يتضمن الرؤية والإدراك والقيم المشتركة التي يؤمن بها كل من المرسِل والمستقبِل، فهو مقام المشترك في الهم والتفكير والتعبير[٣].

ويدخل **التبليغ** وشرح بعض الأمور الملتبسة ضمن الأسباب التي دفعت الشعراء إلى إنشاء رسائلهم؛ لتوضيح ما قد يعتري الفهم حول الدعوة السلفية التي قام عليها الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فيقوم الشاعر بما يجلو اللبس والفهم الخاطئ لما جاءت به الدعوة. وذلك التوضيح يأخذ مظهر الشرح والتبليغ، يقول الشاعر الشيخ محمد بن أحمد الحفظي ناصحًا لأشراف أبي عريش أن يتبعوا الحق ويقفوا في صف الدعوة المجددة للدين الصحيح على هدي السلف الصالح من المسلمين:

فإليك يا قاضي البلاد قصيدة حسنت معاني لفظها المتعلل[٤]

.. ..

---

[١] – هو حمود بن محمد الحسني (١١٧– ١٢٣٣هـ)، قاتل الجيوش السعودية فهزموه، ثم انضوى تحت لوائها فقاد المعارك الكبيرة وناصر الدعوة السلفية. انظر، "عبق الراحلين"، هامش ص٦٩، ص١٩٩.

[٢] – علي بن حيدر (١١٨٢– ١٢٥٤هـ)، كان فارسًا شجاعًا. وقد ساءت علاقته مع عمه، وتحاربا فخرج إلى مكة للاستعانة بحسني باشا والي محمد علي على الحجاز، فلما توفي عمه (١٢٣٣هـ عاد إلى المخلاف برفقة خليل باشا وتولى إمارته، وقعت بينه وبين أمراء عسير حروب كثيرة وناهض الدعوة السلفية. انظر، "عبق الراحلين " هامش ص٢٠٠.

[٣] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ص ٢٠– ٢٢.

[٤] – "نفحات من عسير "، ص ٥٨–٥٩. وانظر، "مجموع في تاريخ عسير"، ص ١٨٠.

والحق أولى أن يجاب وإنما لم أدر ما حيلولة المتحيل
إن كان ظنا أن ذاك مخالف فهو البريء من الخلاف المبطل
بل قام يدعو الناس للتوحيد والتجريد والتفريد للرب العلي

فالشاعر يخاطب الشريف حمود وهو على علم شرعي وافر ويخاطبه بالقاضي وهو منصب ديني يدعو صاحبه للعدل والحكم على الأشياء بالعدل ثم يبين أن الدعوة صحيحة العقيدة والشريعة، وليست دعوة تقوم على الأهواء أو مخالفة ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام.

وقد راسل العلماء خارج منطقة عسير في شأن الدعوة الإصلاحية ، فأرسل إلى المنصور بن المهدي[1] أحد أئمة اليمن قصيدةً يوضح شأن الدعوة ، فيقول :

ألا أبلغا ما تسمعا من عواليه وقولا بإسناد ومتن لواعيه[2]
صفا سلسلا من أخبار نجد وصححا عللا فآيات الكتاب تعافيه
....
وقولا لهم أنا سمعنا مناديا ينادي إلى التوحيد أهل أراضيه

يبدأ الشاعر رسالته بهذه اللازمة المعروفة عند الشعراء (ألا أبلغا) عندما يرسلون خطابهم إلى آخرين سواء من الأصحاب أو الأخلاء أو الأحبة أو القوم والعشيرة أو حتى الأعداء. هذه الجملة تنبيه إلى المرسل إليه بأن الكلام الآتي مهم يجب العناية به وحمله على محمل الجد. فهو كلام ثابت وصحيح المتن والسند لمن يعي الحق ويرغب فيه، وخاصية التبليغ أو التداول هنا تظهر في الألفاظ (أبلغا) و (صفا) و (قولا). فخليلا الشاعر عليهما أن يوضحا ويبينا للمرسل إليه أن هذه الدعوة دعوة

---

[1] – هو المنصور بن علي المهدي (١١٥١– ١٢٢٤هـ)، ولد في صنعاء وتعلم بها ، وفوضه والده على ولاية صنعاء. انظر، "عبق الراحلين"، ص٤٠.

[2] – "عبق الراحلين"، ص٤٠.

حق وليست دعوة هوى وهي دعوة للتوحيد ليست غريبة ولا مبتدعة، بل هي دعوة لأحفاد أهل التوحيد الأولين الذين حملوه من الجزيرة العربية ونشروه.

ب- **المبايعة والنصرة والتأييد:**

عندما أخذت الدعوة السلفية تنتشر وتُعرف في أوساط الناس وذاعت مبادئها وأفكارها أصبح الناس بين مؤيد ومعارض ومتحير، وأخذ الشعر زمام المبادرة في هذه المواقف؛ مما أشاع جواً شعرياً ينضح بالمواقف، ومن ذلك رسالة من محمد بن أحمد الحفظي يرسلها مع صاحبٍ له – على الحقيقة أو المجاز- يعلن فيها مبايعته وولاءه للدولة السعودية، ومساندته لدعوة الحق.

أتيت إليكم من بلاد بعيدة ولا عجب فالحق يؤتى من البعد[1]

وأرسلني العبد الفقير محمد ووالده الحفظي فاسمع لما أبدي

فأولها يهدي السلام عليكم ورحمة ربي والتحيات كالشهد

ويخبركم بالاستجابة للندا وتلبية الداعي إلى أحسن القصد

وهذي يدي عنه لبيعتكم وذي يميني لعقد العهد والربط للعقد

على وحي ربي واتباع نبيه على حسب الطاقات أو مبلغ الجهد

فهذه الرسالة بعث بها الشاعر للسلام على الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود معلناً البيعة والولاء له على اتباع القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك أيضا قوله:

وأهدي سلاما طيبا متأرّجا يفوح بأرياح العبير وغاليها[2]

يزور سعودا بالسعادة والرضا ويقرأه خير التحايا ونامیها

---

(١) – "نفحات من عسير "، ص ٤٨.

(٢) – المصدر السابق، ص ٧٩.

ويعلمه بالحب في الله والولا وتلبية الداعي ودعوة آبيها

فجاءت هذه الرسالة لإعلان الولاء والبيعة وأن يكون جنديّاً مخلصاً لولي أمره ملبياً دعوته إلى الولاء واتباع الدين الحق. الرسالة ملفوظ شفاهي في الأصل؛ منطوق ومسموع أو مقروء ولذلك فهو يحتوي على عناصر التلفظ من نبر وتنغيم إضافة إلى حضور المتلفظ وسياق خطابه والمواقف التي يجب أن يعبر عنها خطابه. فهنا يحضر صوت المرسل ويعتمد على ضمائر الحضور وبالذات ضمير المتكلم باعتباره مركز المقام الإشاري وضمير المخاطب الذي يقابله في ذلك ويشاركه فيه[١].

٢- الأسباب الخاصة:

أ- التهنئة:

التهنئة من الأسباب الباعثة على كتابة الرسالة الشعرية، خاصّةً التهنئة بالنصر ومبايعة الناس وانضوائهم تحت راية الدولة الجديدة وتأييد الدعوة والوقوف بجانبها، يقول الشيخ إبراهيم الزمزمي الحفظي[٢] ومن ذلك:

ألا إني أهنئ الأمـــير بنصر الله والفتح الشهـير[٣]

وذاك عليه بل وعليّ من جسيم حقه شكر الشكور

ومن ذلك أيضًا:

أتانا بشير الخير بالفتح والنصر فشكرا لك اللهم في السر والجهر[٤]

---

[١] - انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية-، ج٢، ٢٣.

[٢] - هو الشيخ إبراهيم الزمزمي بن أحمد الحفظي، من سنة ١١٩٩هـ – ١٢٥٧هـ، ولد ببلدة رجال ألمع. سماه والده بصديقه الشيخ إبراهيم الزمزمي الريس أحد علماء مكة المكرمة. انظر، محمد بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، انظر، "نفحات من عسير "، ص١١٥- ١١٦.

[٣] - "نفحات من عسير "، ص ١٢٢.

[٤] - "مجموع في تاريخ عسير"، ص١٠٥.

فإن دخول الناس في الدين نعمة يحق لها طول المدى سجدة الشكر

فالشاعر يجده من الواجب التهنئة ويرى ذلك من شكر الله الذي يسَر للناس أمراء يقودونهم للخير ويعملون على سعادتهم في الدنيا والآخرة وإعلان الناس المبايعة والولاء نعمة كبيرة وما جزاؤها إلا السجود لله شكراً.

وقد يبعث الشاعر برسالة شعرية إلى صديقه أو أخيه أو أحد أصفيائه يهنئه بالشفاء من المرض، فهذا محمد بن أحمد الحفظي يرسل إلى صديقه محمد بن إسماعيل الربعي[١] بعد أن أصيب بشيء من الاضطراب في الأعصاب ثم شفي منه، يقول:

نمت الخيرات والشر انمحا وبدت في حسنها شمس الضحى[٢]

بعد غيبوبتها بالغيم أو بكســـــــوف لضياء وضحا

لا لسلب النور عنها إنما لاعتبار لـــــصدى القلب محـا

ولقد صلى لهـــــا أرفلة من كبار العلمـــــــاء الصلحا

فانجلت وانجاب عنها ما عرى واستقر الضوء والجـــــو صحا

يتفاءل الشاعر (المرسل) لصاحبه (المرسل إليه) بأن هذا العارض الصحي والمرض ما هو إلا تطهير وتمحيص عن الذنوب التي قد يصيبها المرء. فهذا المرض خير لصاحبه؛ لأن عاقبته حسنة. ويصور الشاعر هذا العارض الصحي بأنه مثل غيمة قد حجبت الشمس أو مثل كسوفها، ولكن ما لبثت تلك العوارض أن زالت وأعقبها الإشراق والضياء. ويشير الشاعر إلى أن الفضلاء والعلماء قد أخلصوا للمريض بالدعاء

---

[١] – محمد بن إسماعيل الربعي كان معاصرًا للشيخ محمد بن أحمد الحفظي وصديقًا له، من العلماء الأعلام والنبلاء الفخامة. شاعر ومن علماء الدين ومشايخ الدعوة، وله العديد من المؤلفات. انظر، "عبق الراحلين"، هامش ص٣٤٤.

[٢] – عبد الرحمن إبراهيم زين العابدين الحفظي، " شعاع الراحلين"، جمع وتحقيق عبد الرحمن إبراهيم زين العابدين الحفظي، ط١، نادي أبها الأدبي، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م، ص٣٣-٣٤.

وطلب الشفاء له من الله. وهنا يتلمس الشاعر مخاطبة مشاعر صاحبه العميقة بأن أحبابه وعلماءه ومعارفه قد ساءهم ما أصابه، وفي هذا مشاركة للمريض في مصابه. وقد أجاب المخاطَب بقوله:

نحوهم عقل المعنى طمحا وإليهم طار لما جمحا[١]

....

زادني ودا على الود الذي بفؤادي لكمو ما برحا

يبدي شوقه إلى المرسِل، ويمتن لجميل صنعه الذي زاد مودته القديمة مودة.

ومن الأسباب الباعثة لكتابة الرسالة الشعرية التهنئة بالسفر لأداء مناسك الحج، فهذا أحمد الحفظي[٢] يودع ولديه (محمد وعبدالقادر) ويهنئهما على الذهاب لمكة وأداء هذه العبادة العظيمة، وذلك في حج عام ١١٩٨هـ، يقول:

لكم البشارة والهنا بالله ولنا وذلك حسبنا والكافي[٣]

وهو المحيط بنا ورحمته لنا وسعت ونحن له من الأضياف

....

وهو الميسر للأحبة حينما ساروا على اسم الله للإيلاف

والحج للبيت العتيق مرادهم في حفظ رب كافل عطاف

وقد يبعث الشاعر رسالته إلى مرسل إليه لسبب خاص جدًّا بذلك المخاطب يقول إبراهيم بن أحمد الحفظي[٤]يهنئ أخاه على رؤياه لنبي صلى الله عليه وسلم، فيقول:

---

[١] – المصدر السابق، ص٣٥-٣٦.

[٢] – هو أحمد الحفظي الأول بن عبد القادر (١١٤٥– ١٢٣٣هـ)، ولد ببلدة رجال ألمع، وتلقى تعليمه على يد والده وأعمامه، رحل في طلب العلم إلى صبيا واليمن. انظر، "نفحات من عسير"، ص٢٣-٢٥.

[٣] – " شعاع الراحلين"، ص٩٥.

[٤] – هو إبراهيم الزمزمي بن أحمد الحفظي (سبقت الإشارة إليه).

اقبل البشرى برؤيا المصطفى يا زعيم المسلمين الحنفـــا[1]

خصك الله بها إذ صرت من تبع الأسلاف لاَ مَنْ خلفا

....

فلذا نادت تهانيك هلـــم نحـــونا نهدي إليكم تحفا

يصف الشاعر هذه الرؤيا بأنها بشارة خير للرائي وترمز إلى رفعة شأنه بين الناس وما ذاك إلا لالتزامه بالحنيفية السمحة على منهج السلف الصالح. فهو يهديه هذه القصيدة تهنئةً واستبشاراً له بالخير القادم إليه.

ب- الشفاعة:

والرسائل الشعرية تناولت جوانب مثل الشفاعة والتلطف في قضاء بعض حوائج الناس أو الوقوف بجانبهم في بعض الشؤون الخاصة التي يريدونها، ومن ذلك أن الأمير عبد الوهاب بن عامر المتحمي[2] رغب في زيارة الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد وطلب العلم عند مشايخ الدعوة السلفية، فبعث الشاعر محمد بن أحمد الحفظي برسالة يعرِّف الإمام به ويطلب منه أن يحوطه بعنايته والإقبال عليه وإكرامه، يقول الشاعر:

ولنا بحمد الله سبق إجابة من غير رد قبلها ومطال[3]

وأميرنا أعني ابن عامر تابع يقفو الحـــوار للإمام الوالي

وأتاه شوق للوصول إلى الذي ورث المـــكارم والد الأشبال

---

[1] – " شعاع الراحلين"، ص٩٩.

[2] – هو عبد الوهاب بن عامر المتحمي كان فارسًا شجاعًا ذا مهابة وسطوة، ناصر الدعوة السلفية ورحل إلى الدرعية لتلقي العلوم الشرعية. وله حروب ومغازي كثيرة وقد قتل في إحدى المعارك بالمخلاف السليماني(جازان) سنة ١٢٢٤هـ. انظر، "مجموع في تاريخ عسير"، ص١٧٨-١٩٠. وانظر، "عبق الراحلين"، هامش ص٢٠٥.

[3] – "نفحات من عسير "، ص ٧٦-٧٧.

أعني سعودا من سعدنا منه بالسـ عد الوسيع وفوق ما في البال
فاستوص خيرا يا سعود إمامنا بأمـــيرنا وامنحـه بالإقبال
واذكر لآل الشيخ أشياخ الهدى لا يذخرون عن الأمير معالي
وأخي صفي الدين أحمد قل له يرويه من مـاء لــديه زلال

فالشاعر يثني على الأمير المتحمي بأنه من الشخصيات ذات المكانة وله يد في مناصرة الدولة والوقوف بجانبها بل يرغب في دراسة العلم الشرعي والأخذ من المشايخ الكبار من آل الشيخ، بل يطلب من الأمير سعود – رحمه الله– أن يستوصي به خيرا ويمنحه ما يستحقه من الوفادة وحسن الاستقبال لما له من مكانة في قومه، وان يطلب مشايخ العلم من آل الشيخ أن يقدموا له ما يحتاجه من العلم والإرشاد في كل ما ينفعه؛ ليكون بعد ذلك جندياً على علم وبصيرة في بناء الدولة والدعوة.

ج- **الحنين والشكوى:**

الحنين والذكريات من الأسباب التي تدفع الشعراء إلى بعث الرسائل خاصة مع بعد المسافات ومشقة الطرق في ذلك الزمن، فالشعراء تهيج عواطفهم وتتلبسهم حالة الحنين والذكرى كلما رأوا برقاً أو سمعوا غناء الحمام أو سنح لهم بعض الذكريات أو المواقف الجميلة فيعبرون عن ذلك شعراً. والشكوى والحنين إلى ديار الأهل ومرابع الصِّبا مما يدفع الشاعر لكتابة رسالته إلى صديق أو أب أو أخ، ومن ذلك رسائل محمد بن أحمد الحفظي إلى والده، وقد كان الابن في رحلة لطلب العلم عند مشايخ القنفذة، يقول:

وميض البرق بالزور أشجاني وحادي العيس قد أشجى جناني[1]
وصـــادحة بدوحتهـا تثنت بتسجيع المعـاني لا المغـــاني

[1]– "نفحات من عسير "، ص ٣٦.

فهذا قد شجاني وذاك أشجى ومعنى تلك بالمعنى سبـاني

.. ..

معالم والدي وديار شيخي ومأوى منتهى كل الأمان

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن المباني

إنّ الشاعر يسير في هذا الحنين إلى بلده وأسرته كما يسير الشاعر العربي القديم فالبرق يثير شجوه وشوقه عندما يراه في ناحية أهله وديارة، ومثل ذلك ما يكون عند سماعه لحداة الإبل المسافرين أو الحمام الذي يسجع فوق الأغصان وما ذاك الشوق واللوعة إلا لبعده عن والده وأهله. والعودة إليهم والحياة بجانبهم منتهى أمانيه.

وعندما استولت الجيوش التركية على منطقة عسير في سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م ووقع كثير من وجهاء وقادة منطقة عسير في الأسر وتقرر ترحيلهم إلى مصر ثم إلى تركيا، حيث استقر بهم المقام بعيداً عن الأهل والأوطان. يذكر ذلك الشاعر أحمد الحفظي مصورًا مشاعره وحنينه إلى دياره وأهله، ويشكو من المصاب الجلل الذي حلّ بهم في رسالة شعرية مليئة بالشجن يصف فيها أحوال الأسرى، ويذكر ما لاقَوه في رحلتهم إلى تركيا من الأهوال والمحن، يقول:

شكاية مشتاق لدار ومعقل وأهل وإخوان وخل ومنزل[1]

وصحب وجيران وقوم أعزة لوافدهم حسن القرى والتجمل

مشى عنهم ليلا فلما اعتلى على حفير اللوى في ليل ظلماء أليل

لأقتبس النيران من كل شاهق كمثل نجوم الصيف ذات التحول

إنّ الشاعر يشكو مشتاقًا إلى هذه الأماكن وأهلها من الأهل والأخوة والجيران ذوي المكانة والعزة ولهم الأخلاق الكريمة والصفات العظيمة في الشجاعة والكرم والدين

(١) – "نفحات من عسير"، ص ١٥٢.

فهو في رحلته الإجبارية ومن معه من العلماء والمحارم يقفون في هذه المواطن التي يعرفونها وهم في أسوأ حال من الأسر وجبروت العسكر الأتراك وقلة ذات اليد. فليس لمن هذه حاله إلا أن يشكو ويتوجع وتذهب نفسه حسرات. وفي موطن آخر يقول:

طلبناهـــــم فرضا نؤديه للذي أراد بهـــذا خير في أخير وأول[1]
فلم ياذنوا بالصبح والظهر بعده ولا العصـــر والوقتين في ليل أليل
وكدنا نلاقي جرعة الموت حسرة على نقص دين بعد وافي التكمل

فلم يقف الأمر عند الشدة والقسوة ومفارقة الأهل والديار، بل قد أُجبروا على أن يفرطوا في صلاتهم وبعض ما يلزم من السنن وقراءة القرآن ومدارسة العلم.

د- **الاستفتاء:**

من أسباب كتابة الرسالة الشعرية عند شعراء عسير ما يتعلق بالسؤال عن بعض القضايا العلمية. فهذا محمد بن أحمد الحفظي يستفتي والده في مسألتين فقهيتين ويبعث بهما شعراً. أولاهما: عن الجماع نهار رمضان. والثانية: عن المرأة المتزوجة التي يجوز تزويجها بآخر دون وقوع الطلاق من الزوج الأول، يقول:

ســـــلام سليم دائم بتجـــدد على والدي شيخي المربي وسيدي[2]
وهذا سؤالي قد نظمت إليكم فمـــــــا قولكم ياخير مرشـــــدِ
وذلك عن شخص يجامع زوجه بشهر صيام وهو في الوطء معتد
وعن زوجة للغير قد حل وطؤها بغير طلاق أو وفاة لذي اليدِ

---

(١) – المصدر السابق، ص ١٥٢– ١٥٣. وانظر، مجموع في تاريخ عسير"، ص٢٦١–٢٦١.

(٢) – المصدر السابق، ص٤٠.

وجاء الرد على السؤالين برسالة شعرية، يوضح فيها الجواب مفصلاً فيه وموجهاً له ومستقصياً بعض الحالات التي قد تتداخل في تلك المسائل:

يعود عليكم دائمـــــا بتردد سلام وتسليم يروح ويغتدي[1]

وقد جاءني هذا السؤال وغنني والهـــم والأشغال مملوءة يد

....

فذلك الذي بالوطء أفسد صومه وجامعها من بعد ذا بتعمدِ

....

وثاني سؤال زوجة حل وطـؤها بغير فـــــراق من حليل المقيدِ

فزوجة مفقود إذا غاب زوجها فيفسخ قاضي المسلمين لمعقدِ

ويلحظ ما في هذه اللغة من الدقة والتزام المعاني الواضحة للسائل مع تقريرها؛ لأن موضوعها علمي فقهي فلا يتجاوز الشاعر هنا هذا الهدف من الرسالة، بل لا يتجاوز المصطلح الفقهي واللغة الفقهية إلى غيرها بغية الإيضاح وإفهام الجواب للسائل على وجهه الصحيح.

هـ- العتاب

والعتاب بين الأصدقاء أو الأخوة من الأسباب التي تدفع الشاعر لمراسلة صاحبه تجديدًا للود والصحبة أو السؤال عن التأخر في الرد على رسالة قديمة، يقول إبراهيم الزمزمي بن أحمد الحفظي:

أهجرا أم تغافلتم أبينوا لي السبب المولد للجفاء[2]

ألا إني على عهدي مقيم كما أني على صافي الولاء

---

[1] - المصدر السابق، ص٤١.

[2] - "شعاع الراحلين "، ص١٥.

لكم ادعو وأسأل من ألاقي ومشتاق إلى طيب اللقاء

فالشاعر يسأل صاحبه عن سبب الجفاء والإبطاء في الرد على رسائله والسؤال عنه. والعتب بين الأصدقاء مطلوب لبقاء الود. فهو يسأل عن الجفاء الذي يشعر به مع بقائه على وده القديم وصحبته الصافية على العهد القديم بينهما. ويدعو لصاحبه ويسأل عن حاله شوقاً إلى اللقاء وحفاظاً على المودة القديمة. وفي رسالة شعرية أخرى يبعث بها الشيخ إبراهيم بن أحمد الحفظي الزمزمي إلى أحد أخوته قائلًا:

ليت شعري ما كان عني أرجا لجواب تأخيره لي أشجـــا[1]

هل ترى أن سوء حظي قد حا د علينا وأُرتج الباب رتجا

غير أن العتاب ليس بمجـــــد فوقوفي عن الملامة انجـــا

فيعاتب أخاه مستبطئاً الإجابة على رسالته، وذلك التأخير قد أشجاه وآلمه؛ لأنه لا يعلم لذلك التأخير سبباً؛ إذ تدفعه حيرته إلى السؤال هل هو حظه السيئ الذي أخر الرد أم أن هناك سببا؟ وتلك الحيرة من أمر صاحبه تدفعه للإقصار عن الملامة، إذ لا يرى فيها فائدة بل تركها أولى.

إنّ الشاعر (المرسِل) عندما يعرض أسباب رسالته سواء كانت أسبابًا عامة أو خاصة فإننا نتلقاها بالقبول ولا يشعر المتلقي بخروجها عن الإطار العام للرسالة، بل تكشف لنا عن جانب اجتماعي أو ثقافي أو إنساني لدى الشاعر. وإن لم يكن من ذوي السلطة أو الجاه إلا أنه يملك سلطة البيان وهي القدرة على الإقناع والتأثير في المخاطَب. فالشاعر المبرِّز بمقدوره أن يوفق بين شروط الصناعة الشعرية عموماً وبين شروط الإنتاج الشعري وشروط التلقي[2].

---

[1] – المصدر السابق، ص٣١.

[2] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ص٣٩.

وفي ذكر أسباب الرسالة يظهر الخطاب موجهاً توجيهاً مباشراً من مرسل بعينه إلى مخاطب محدد في سياق خطابي محدد لتحقيق غاية محددة وهذا يعني أن هذا الخطاب محكوم بشروط المرسل وشروط المرسل إليه أي الخضوع لمقتضيات الحالة التي عليها المرسل والمخاطب وكذلك الموقع الاجتماعي لكليهما والغاية أو المقصدية وهذه ما تعرف بشروط القول المغلق بحكم أنه صادر من قائل بعينه إلى مخاطب بعينه في مقام بعينه لتحقيق غاية بعينها[1] .

ثانياً: مضامين الرسائل الشعرية:

قد يتبادر إلى الذهن أن الأسباب الدافعة لكتابة الرسالة الشعرية لا تخرج عن كونها من المضامين إلا أننا غالبًا ما نجد الرسالة الشعرية تستطرد إلى موضوعات أخرى، وتصبح تلك الموضوعات هي صلب الرسالة الشعرية مضمونها الذي يهم المرسل والمرسل إليه. فتصبح الأسباب كالمقدمات أو الممهدات للرسالة أو تعليلا لإرسال الرسالة خاصةً إذا لم تكن بين المرسل والمرسل إليه علاقة سابقة. فجاءت المضامين سياسية وتاريخية وثقافية؛ ولأن المجموع جاء في باب التاريخ والعناية بالأحداث الكبيرة في عهدي الدولة السعودية الأول والثاني فقد جاءت مضامينها في هذا الاتجاه حول حالة البلاد وفيما يتعلق بعودتها للدين وانضوائها تحت راية الدولة السعودية. وقد صورت هذه الرسائل الشعرية حال البلاد قبل الدعوة والدولة ثم الجهود التي بذلت من أجل تحقيق الأمن والطاعة وعودة الناس للدين الصحيح ثم ما آلت إليه حال الدولة والدعوة، وتوجز الدراسة ذلك فيما يأتي:

---

[1] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ٢٤.

١- حال البلاد وقت ظهور الدولة والدعوة:

أ- انتشار الجهل والبدع:

من القضايا الكبيرة قيام الدولة السعودية منذ تأسيسها على نقاء العقيدة والدعوة إلى البعد عن كل مظاهر الشرك الأكبر أو الأصغر، وقد كانت عادة الطواف بالقبور والأضرحة والتوسل ببعض الأولياء منتشرة في بعض المناطق فقامت الدولة والدعوة بالوقوف ضد هذه المظاهر التي تخالف هدي القرآن والسنة، وتناولت الرسائل الشعرية هذه المعاني، ومن ذلك:

وترى جموعًا ليس يحصى عدهم من أهل علم أو من الجهال[١]

متظاهرين بشركهم في قولهم وفعالهم والاعتقاد الغال

يدعون غير الله في حاجاتهم دفعًا ونفعًا كاليا في كال

وعكوفهم عند القباب ونذرهم والذبح للقربان والأحمال

فالشاعر يصف هذه المظاهر بأنها عامة بين الناس ممن هو محسوب على العلم ومن عامة الناس فالتوسل والطواف بالقباب والأضرحة والذبح لغير الله. ويشير الشاعر محمد بن أحمد الحفظي إلى مظاهر أخرى من الجهل والابتداع في الدين والاعتقادات الفاسدة فيقول:

بل يشركون بضفدع وبثعلب والكلب إذ يعوي لهم بليال[٢]

والنجم والأشجار والأحجار والكهان والكفار والأطفال

والمنكرون لذاك فيه قلة والسيف مغمود بغير قتال

---

[١] - "نفحات من عسير "، ص ٧٥.

[٢] - المصدر السابق، ص٧٥.

وكان الاعتقاد الفاسد ببعض الأشجار أو الحيوانات منتشراً، كأن يعتقدوا بنزول المطر عند سماع نقيق الضفدع أو صوت الثعلب أو يخافوا من موت المريض عند نباح الكلاب[1]. كما كانوا يعتقدون بتأثير النجوم. وكل ذلك مظاهر تناقض الاعتقاد الصحيح القائم على التوحيد لله. فهنا يعيب الشاعر على الناس البدع القائمة على الهوى وتقليد الآباء والأجداد أو بعض أهل الطرق التي تشجع على مثل هذه الأمور، ولا تنكرها.

ب- الجهود في سبيل الدولة والدعوة:

لقد كان قيام الدولة والدعوة من الأحداث المهمة في تلك الفترة التاريخية المليئة بالتفكك والجهل والفقر. وقد تأسست على مبدأين رئيسين هما: الدعوة إلى توحيد البلاد من الناحية السياسية والدعوة إلى توحيد الله والعودة إلى المنابع الأصيلة في الإسلام (القرآن والسنة). ولم تكن الأمور في بداياتها ميسورة ولا سهلة، بل لقي دعاة الوحدة والعلم مواجهة شديدة سياسية ودينية. وقد تطرقت الرسائل الشعرية في مدونة الدراسة إلى ذلك بالشرح والتوضيح لكل الجهود التي قام بها المؤسسون والعلماء والدعاة - رحمهم الله- ومن ذلك تقول إحدى الرسائل الشعرية بعد أن تكلمت عن الحال السيئة للبلاد والعباد قبل قيام الدولة والدعوة:

حتى أتانا من مشارق أرضنا نبأ عظيم أمره متوالي[2]

داع بأعلى الصوت يدعو الناس بالتوحيد والإفراد بالأعمال

ويحث في صرف العبادة كلها لله ليس الشرك في مثقال

---

[1] - انظر، المصدر السابق هامش ص٧٥.

[2] - المصدر السابق، ص ٧٥.

يذكر الشاعر مبتدأ الدعوة وانطلاقها من نجد وتأييد الإمام محمد بن سعود لها وقد جاءت بالتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة وتدعو إلى جمع الكلمة والاجتماع بعد الشتات والتفرق. فأراد الله لهم النصر واراد الله للناس الخير في دينهم ودنياهم، يقول الشاعر:

والنصر معقود على راياتهم والله عاملهـــم بخير نـــوال[1]

والغزو يتلو بعضه بعضا إذا صدر السرايا جهـزوا بالتالي

حتى أقر الناس بالتوحيد عن برهـان سيف أوعن استدلال

وانقادت الأمم الكثيرة للهدى وعسـاكر القرآن في استقبال

وشعائر الإسلام في أعلى الذرى والشرك في سفل وفي إسفال

وقد نذر أئمةُ الدولة والدعوة أنفسهم لهدفهم العظيم الذي هو التوحيد على المستوى الديني أو على المستوى السياسي، وقضوا حياتهم في سبيل ذلك، وجاء أبناؤهم وساروا على نهجهم وطريقتهم؛ فانقادت الناس لهم، فتعلموا العلم والقرآن والدين الصحيح فارتفعت راية الإسلام وانهزمت راية البدع والشركيات. وما ذلك النصر والفوز وعلو المكانة إلا سنة الله التي قضت بأن يكون على الحق طائفة منصورة، وهي التي تقيم شرع الله على منهج رسوله وصحابته الكرام، وقد كان ذلك ما قامت به الدولة السعودية والدعوة السلفية، يقول الشاعر:

وقد بشر المختار بشرى وحبذا بشائره في قولهـــا ومقولها[2]

بطائفة تبقى على الحق دائمـا واخلافها يختار منها عدولها

لتنفي عن البيضاء تحريف مبطل وتنفي غلوا غالها وغلولها

---

[1] – المصدر السابق، ص ٧٦.

[2] – المصدر السابق، ص٧١-٧٢.

....

وذلك في الدرعية البقعة التي يحل بها الداعي لصدق حلولها

فقد كان أسمى هدف يطمحون إليه هو تنقية الدين والشريعة البيضاء مما خالطها من الخرافات والجهل والبدع. وقد حقق الله لهم ما سعوا إليه ورأوا بشائر الخير تظهر فبايع الناس للدولة والدعوة. في شمال البلاد وشرقها وجنوبها وغربها، وانتشر الأمن والاستقرار وأَمِنَ الناس وانتشر العلم والخير، وكان ذلك بفضل الله ثم بدعوة المخلصين من أئمة الدولة والدعوة –رحمهم الله–، يقول محمد بن أحمد الحفظي:

ولله داع قد دعانا إلى الهدى وأهل الهوى في هوة من مهاويها[1]

على غفلة من دينها ونبيها وفي غلظة غطت على حق باريها

فنبه نواما وأيقظ غـــــافلا وقوم أقواما على دين عاديها

وعضت من الجهل البسيط انامِلا وخطت بأيديها خطاء أياديها

فهذه الأمور الطيبة التي يخبر بها الشاعر صاحبه من قيام شعائر الدين وانتشار العلم والوعي بما كان عليه الحال ثم تغيرت إلى الأفضل فاتساع الاهتمام بالعلم والأسف على الجهل مسألة مهمة؛ لأن العلم أساس كل تغير وتطور. كل ذلك بفضل الله ثم بفضل جهود المخلصين من رجال الدولة والدعوة.

ومع أن هذه الرسائل تشيع روح التفاؤل بتحسُّن الأمور وتطورها نحو الأفضل إلا أنها كذلك خاضت في شؤون أخرى خاصة في بيان أحوال الناس ومواقفهم من الدولة والدعوة الجديدتين، ففي البدايات انقسم الناس تجاه ذلك إلى صنفين مؤيد ومعارض، وكل منهما له أسبابه واهتماماته التي تدعوه لذلك، وأدّى هذا الانقسام

---

[1] – المصدر السابق، ص٧٨.

إلى ظهور الجدل والحوار والردود بين أصناف المتعارضين، ومنهم الشعراء فقد تراسلوا، وتناقضوا، وشرحوا، وبينوا. وكلٌّ يدافع عن نفسه وموقفه واتجاهه.

أما المعارضون الذين وقفوا في سبيل الدولة والدعوة، فيرى خصومهم أن ما دفعهم للمعارضة هو التعصب والجهل والمغالبة:

والناس في رد لدعوة شيخنا ويعارضون بشبهة وجدال[١]

وتعصُّب وتحـــزُّب وتغلُّب وسفــاهة وجهالة وضلال

وأما المؤيدون، فقد ظهرت بوادر التأييد بالاتفاق الذي جرى بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي قدم إلى الدرعية فناصره الإمام محمد بن سعود ووقف إلى جانبه في نشر العلم وتصحيح بعض الأخطاء والبدع في الدين التي يقع فيها الناس

وأبو سعـود مستقيم ثابت يحمي جوار الداعي المفضال[٢]

حتى أراد الله نصرة دينه بقتال أهل الشرك باستئصال

ذاك الخليفة والإمام المتقي الراعي الداعي لخير خصال

وانطلقت الدولة والدعوة بعد هذا الاتفاق يساند كل جانب الآخر في تحقيق معنى التوحيد الديني والسياسي، كما يقول الشاعر:

ويدعو إلى التوحيد في كل بلدة وينهى عن الإشراك في السر والجهر[٣]

وكان التعاون بين الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي يتخذ أشكالا عديدة ولو اضطر ذلك للقتال والحرب؛ لأن حال البلاد لا يحتمل مزيدًا من التفكك

---

[١] – المصدر السابق، ص ٧٦.

[٢] – المصدر السابق، ص ٧٦.

[٣] – المصدر السابق، ص ٦٤.

والشقاء. فهم يبذلون ما في وسعهم للإصلاح وإقامة شعائر الدين والخير بعد ان درس بعضُها وتهاون الناس في بعضها الآخر جهلًا أو خوفًا أو تهاونًا:

عصائب في نجد تمهد للمهدي وتحيي موات الدين في القرب والبعد[1]

وبارقهم مـــا زال بالخير لامعا فبورك مـن برق وبورك مـن نجـــد

وكون الخطاب في الرسالة الشعرية ينطلق من مقام إدراكي مشترك فهو مقام تبعية متبادلة وذلك جنس من القول مشروط بحضور جميع أطراف العملية التخاطبية حضوراً متكافئاً بحيث لا تطغى هوية أحد الأطراف على بقية الأطراف الأخرى. وهذا المقام يقتضي أن تكون لغة الخطاب لغة شفافة وواضحة : لغة التحليل والشرح أو لغة الأمر والنهي كما هي لغة التحريض والحث[2].

ج- شرح منهج الدعوة ومبادئها:

١-أصول الدعوة:

تضمنت الرسائل الشعرية في هذا المقام شرحاً لقضية الدعوة ومساندة للموقف السياسي الذي انتهجه الإمام محمد بن سعود في إدارة شؤون هذه المرحلة، وكان من الأدوار المهمة التي تقوم بها هذه الرسائل الشعرية إذاعةُ مبادئ الدعوة وتوضيحُها للناس وتأكيدُ منطلقاتها وأهدافها، فهي دعوة قائمة على الدليل وليس الادعاء، يقول الشاعر:

هذا كتاب الله ينطق معلنا في العنكبوت وص والأنفال[3]

وكذلك تنزيل الكتاب وسورة الأحقـــــــاف فيما تلاه التالي

آيات حق شاهدات أنه المعبـــــــــــود بالتفصيل والإجمال

---

(١) – المصدر السابق، ص ٤٦.

(٢) – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ص٢٦– ٢٧.

(٣) – "نفحات من عسير "، ص٧٥.

....

وعجبت أن الأمر هذا واضح متيقن للبله والعقـــــــال

فالشاعر هنا يشير إلى أن منطلق الدعوة هو القرآن والوحي المنزل من الله، وللمتلقي ان يعود لذلك في كتاب الله فيجده ناطقا بمبادئ الدعوة ومنهجها. وفي رسالة أخرى يؤكد على أن ما يدعو إليه الإمامان ما هو إلا الرجوع إلى دين الله الصحيح والوحي، يقول:

هو الوحي دين الله عصمة أهله وحظهم الأوفى وجدهم المجدي[١]

وفي رسالة أخرى يوضح الشاعر أن منهج الدعوة قائم على عقيدة السلف في الأسماء والصفات وفي الشرائع والأحكام كما ينبّه إلى أهمية الالتزام بالقرآن الكريم وصحيح السنة بعيداً عن الشطحات والشبهات التي يدعو إليها كثير من الناس بغير علم، يقول:

واعلمه بالعلم الذي قد قـاله في محكم القرآن ذو الإرسال[٢]

وانطق بآيات الصفات مصدقا من غير تكييف لهـا ومثال

واعدل عن الشطحات والشبهات والتعطيل والتشبيه والتمثال

وأجزه على علم اليقين أو على عين اليقين فذاك خير منال

وفي رسالة أخرى يقول محمد الحفظي:

واعبده بالمشروع إنك عبده لا تعبد العبد الضعيف الخالي[٣]

واستنطق القرآن والأخبار عن شـــــــرك العبادة كل ضلال

---

[١] – المصدر السابق، ص ٥١.

[٢] – المصدر السابق، ص٧٤.

[٣] – المصدر السابق، ص٧٤.

يحذر الشاعر من التقليد الأعمى وتقديس الأشخاص أو تقليدهم في أمور الدين والاحتجاج بما يجده المرء في بيئته أو مجتمعه، وإنما يرى أن المسلم مطالب باستنطاق القرآن والاستدلال به وبالسنة الصحيحة، وما سوى ذلك فهو ابتداع في أمور الدين.

٢- طريقة الدعوة:

وكما يريد الشاعر أن يوضح أصول الدعوة ومبادئها فهو يسلك في ذلك طريقة الترغيب في اتباع الدولة والدعوة، وينفِّر من مخالفتهما لما في ذلك من خسارة في الدنيا والآخرة، فما الفوز والفلاح إلا في اتباع منهج الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة إليه، والحسرة والندامة لكل من أعرض عن الحق، يقول محمد الحفظي في رسالة إلى الإمام عبد العزيز بن محمد:

وقف بديار الشيخ عبدالعزيز من دعـــــانا ولبيناه بالصدق والجد[١]

وقال لنا لا تشركـــــوا بربكم فليس مع الإشراك من طاعة تجدي

وصلوا وصومـــوا واتبعوا لنبيكم فقد قال يوم الحج لا ترجعوا بعدي

فالشاعر يزاوج بين أسلوبي الترغيب في الخير والترهيب من الشر ومن البعد عن دين الله ويحذر من مخالفة المنهج القويم، ومن ذلك أيضاً:

فقل لمنكر ما قالوا يناظرهم بالعلم في ثغرة المرمى لراميها[٢]

والرجم بالغيب والبهتان منقصة والرد للحق من أخزى مخازيها

ولا تقلد بغيضا شامتا لهم إن الشهادة رد من أعاديها

ودر مع الحق أينما تجده وجد بطاعة الله إن نادى مناديها

---

[١] - المصدر السابق، ص٤٧- ٤٨.

[٢] - المصدر السابق، ص٥٥.

والدعوة للمناظرة من الطرق التي يستعملها الشعراء في رسائلهم الشعرية في الإقناع – إلى جانب الترغيب والترهيب – بما جاءت به الدعوة السلفية في جانبيها السياسي والديني، مع تذكيرهم بما يجب أن تكون عليه المناظرة من العلم واتباع الحق أينما كان فذلك منهج أهل التقوى والمروءة وأن يتأمل الإنسان ما يعرض عليه بمنطق الدين والعقل والبعد عن اتباع الهوى والبهتان؛ لأن ذلك من الخزي الذي قد يعرض الإنسان نفسه له في دنياه وأخراه.

يتضح من هذه النماذج أن الرسالة الشعرية تألفت من عالم إدراكيّ مشترك في الوعي الجمعي يجعل المرسل والمخاطب يفكران ويشعران بطريقة واحدة وذلك ينطوي على وحدة المرئيّ المشترك أي الأفق الزماني والمكاني المحيط بأطراف العملية التخاطبية. كما ينطوي على نظام الرؤية وعلى منظومة القيم المشتركة الثقافية والأخلاقية التي من خلالها نتبنى موقفًا من الأشياء والأشخاص فهذا العالم الإدراكي المشترك يشكل الإطار السوسيو أنطولوجي المشترك الذي يتضح فيه ما يفرض حضوره على المرسل والمتلقي. وكذلك ما يعرفانه وما يقبلانه أو يرفضانه[١].

إن العالم الإدراكي المشترك بين المرسل والمرسل ينتمي إلى مقام التبعية المتبادلة ويحضر الشاعر باعتباره منتمياً إلى كيان خطابي جاهز ومحدد: أي إلى مؤسسة أو سلطة أو جماعة ينطق باسمها. ويتميز هذا الانتماء بكونه انتماءً صارماً إلى تلك الكينونة أو الجماعة من جهة وبمقدرته العقلية و اللغوية على تمثيل انتمائه من جهة ثانية، وعلى تمثيل وجهة نظر تلك الجماعة أو المؤسسة من ناحية ثالثة[٢].

---

[١] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ص٢١، ٢٢.

[٢] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ٢٦.

٣-المدح:

المدح من المضامين المهمة في الرسائل الشعرية عند شعراء عسير في هذه المرحلة؛ وذلك لارتباط الرسائل الشعرية بموضوع إقامة الدولة والدعوة وتأييدهما، وما اتصف به قادة هذه المرحلة من صفات القادة والدعاة ورجال الحكم، مثل قول الشاعر الشيخ محمد بن أحمد الحفظي في مدح الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد:

بأن سعودًا هازم الجيش في الوغى وخائض صف المشركين بلا نكر[١]

وعامر أركان الشـــــريعة والهدى وهـــــــادم بنيان الغواية والكفر

فيمدحه بالقيادة والشجاعة والدفاع عن الدين الصحيح والقيام بتغيير البدع والمنكرات التي تخالفه.

ومثل ذلك للشاعر نفسه أرجوزة شعرية مرسلة إلى أئمة اليمن ردّاً على رسالة وصلت إليه متضمنة السؤال عن الدعوة السلفية التي قام بها أئمة آل سعود من حيث منهجها ودواعيها، فأجاب عن أسئلتهم ومدحهم وأثنى عليهم بما عرف عنهم من اتباع للحق واقتداء بأمر الرسول، فيقول مادحاً ومثنياً على الإمام أحمد بن المهدي بن المتوكل[٢]:

على الإمام بن الإمام أحمد لا زال في كل مقام يحمد[٣]

متابعاً لمنهـــــج الرسول ومرشـــــداً للعمل المقبول

وشاهـــــرا سيوفه المحددة بعد قيام الدعـــوة المجددة

معاضدا دولة أهل الحـــق مســـــــاعدا للقائم المحق

---

(١) – "نفحات من عسير"، ص٦٣.

(٢) –أحمد بن المنصور بالله (١١٧٠– ١٢٣١هـ)، بويع بالإمامة بعد وفاة والده حتى توفي، قائدًا شجاعًا حسن السياسة. انظر، "عبق الراحلين"، هامش ص٢٠٩.

(٣) – "نفحات من عسير"، ص٨٦.

ونجد الشعراء وخاصة العلماء يظهرون التقدير الوافر لمشايخهم الذين تلقوا على أيديهم العلم، فيعترفون بفضل من علمهم ورباهم على السلوك القويم ومهد لهم طريق العلم وسلوكه، يقول محمد بن أحمد

الحفظي في شيخه الشريف يحيى بن محمد القطبي[١]:

ولا كل إنسان ولو جل قدره كإنسان عين الفضل في حدق المجد[٢]

ولا كل حي في حياهُ وحاله كيحيى الذي زانت به حلل الحمد

سليل ابن عم المصطفى وابن بنته ومن عمر الآثار بالمجد والحمد

جميل المحيا ذروة التاج فاضل حليف المعالي والمعارف والزهد

أيا سيدي يحيى الشهير بن سيدي محمد القطبي لا زلت في رشد

يمدح الشاعر شيخه بالفضل وعلو المنزلة والحياء ورفعة النسب فهو من سلالة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقد ورث المجد والفضل كابراً عن كابر، وجاء الرد على هذه الرسالة السابقة:

ولولا كتاب جاءني من مهذب نجيب ترقى ذروة المجـد والحمـــد[٣]

سريع إلى كسب الفضائل والعلا بطي عن الداعي إلى المسلك المردي

شمائله تحكي النسيم لطـــافة وأهنى على قلبي من المـــاء ذي البرد

....

أخو الصمت والإنصاف والعلم والحجا وكف الأذى ذو البذل في العسر للوفد

---

[١] – يحيى بن محمد القطبي (... – ١٢٣٧هـ)، كان عالِمًا أديبًا فاق أقرانه في النظم والنثر. انظر، "عبق الراحلين"، هامش ص١٣٩.

[٢] – "شعاع الراحلين"، ص٥٣.

[٣] – المصدر السابق، ص٤٩.

ويجيب المرسَل إليه على الرسالة السابقة بأنها وقعت منه موقعاً حسناً، فهي كالماء البارد الذي يروي من شربه ويثني على تلميذه الذي يتحلى بزي العلماء والأتقياء في سمته وصمته وما ذاك إلا لرجاحة عقله والتزامه سمت الفضلاء بعيدًا عن كل ما يكره من المسالك أو الصفات.

فالمرسِل يتوخّى في رسالته شروط القصيدة المدحية، ومن ذلك الإلمام بالحال والمقام بحال المصنوع له أو من أجله ومقامه وبما يصلح لحال المخاطب من ذوي المكانة في سياق مخاطبته ومدحه لهم فيحرص على المطابقة بين شروط الحال وشروط المقال[١]. وكون خطاب الرسالة موجهاً توجيهاً مباشراً إلى مخاطب فعليّ أو مباشر يشارك المرسل انتماءه فهو يقدر على فك الشفرة الخاصة التي يتلقاها ويتفاعل معها وهو ما يتطلب من الطرفين التزام سنن التخاطب الرسمي وعاداته وعدم الخروج عن تلك السنن تحت أي ظرف من الظروف[٢].

٤- الحماسة ووصف المعارك:

الحماسة ووصف المعارك من الموضوعات المهمة التي تناولتها الرسائل الشعرية عند شعراء عسير خاصة في شأن إقامة الدولة والدفاع عنها، ونشر لدعوة، وكانت الحروب التي وقعت بسببها من الدوافع التي أججت مشاعر الشعراء فانطلقت ألسنتهم بالشعر الحماسي الذي يؤجج المشاعر ويستنهض الهمم لمواصلة العمل الجاد في إقامة الدولة ونشر مبادئها القائمة على الإصلاح في كل جوانب الحياة

وإنا سمعنا خير ما يسمع الفتى وأفضل ما يحكى ويروى من البشر[٣]

... .

---

[١] - انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية-، ج٢، ص٤٠

[٢] - انظر، المرجع السابق، ج٢، ٢٦.

[٣] - "نفحات من عسير "، ص٦٣.

تجهز في جيش عظيم وعسكر من المسلمين البائعين بمن يشري

ثم يصف مشهدا حربيا فيقول:

وأجرى عليهم من عناجيج خيله صوافن تعدو بالكماة وتستجري[1]

يثير عجاج النقع فوق رؤوسهم كـــــغيم ربيع قد تراكم بالسبر

وكل حسام قد تخضب بالدمـــا ومن كل خطي دمـــاؤهم تجري

إن هذا المشهد الحماسي الذي تغير فيه الخيل بالفرسان الشجعان وتدور فيه المعركة بالسيوف وبالرماح، ويقع القتل، وتخضب الأرض والأجساد بالدماء، وهذا مشهد من مشاهد الحرب مع أنه قد زخر بهذه المقومات الحماسية والصورة المشهدية التي تنقل للمتلقي جو المعركة إلا أن الشاعر يصف الخيل في إغارتها وإثارتها للنقع وكأنه غيم الربيع والفرق بينهما شاسع فغبار الحرب نهايته القتل والدم بينما غيم الربيع يرجى منه الخير والنماء والحياة. كما قام هذا المشهد على توظيف الصورة القرآنية في كلمة "صوافن" وفي كلمة "النقع"، كما يُلحظ توظيفه للصورة القديمة في وصف النقع عند بشار بن برد. وفي رسالة شعرية أخرى يصف الشاعر كتائب الجيش المعقودة تحت راية الإمام عبد العزيز بن محمد الذي يصفه بالإمامة والخلافة. فهي راية منصورة بإذن الله، يقول:

وسرت سرايا (آل مقرن) قبلهم عبد العزيز بسيفه المصقال[2]

ذاك الخليفة والإمـــــام المتقي الراعي الداعي لخير خصال

فوق الركاب وفوق خيل ضمر متضابحـــات رأس كل قلال

لمع السيوف كبارق في ظلمة والنقع فوق رؤوسهم كظلال

---

[1] – المصدر السابق، ص٦٣.

[2] – المصدر السابق، ص٧٦.

من كل قرم في الضراب سميدع قـــــــرم إلى لحم العدا قتال

والنصر معقود على راياتهم والله عاملهـــــــم بخير نوال

وقد جاءت هذه الرسالة بعد أن استولى الأمير عبد الوهاب بن عامر أبو نقطة المتحمي على المخلاف السليماني، وتم أيضًا استيلاء الإمام سعود الكبير على مكة ١٢١٧هـ. فأرسل الشاعر الشيخ محمد بن أحمد الحفظي رسالة شعرية يصف فرحته بهذه الانتصارات ويؤيد الدعوة وأئمتها وأمراءها. ومنها الوصف المتقدم للكتائب والجيش الذي ينشر التوحيد والأمن. فيصف كثرة الكتائب التي تضيق بها الفيافي حتى لكأنّ النقع ليلا قد سد أفق السماء والسيوف فيها مثل لمع الشهب بأيدي مقاتلين أشداء لا يهابون الموت بل غايتهم ملاقاة أعدائهم، ومن هذه حاله فالنصر حليفه.

وفي رسالة أخرى يقول محمد بن أحمد الحفظي إجابة على رسالة شعرية وصلته من الإمام سعود الكبير، يصف فيها بعض مشاهد الحرب وفرسانها، ويشيد بشجاعتهم وبسالتهم، وما تلك الحرب إلا إعلاء لكلمة الحق والعدل ونشر الأمن، يقول:

وهذا (سعود) ذو السعادة ساعيًا يجاهد لم يردعه باد وحـــاضر[١]

ولم ينهه نوم الملوك استراحـــــة ويقظتهم هم والندامى السوامر

يبيت يجافي جنبه عن فراشه على صهوات الصافنات يســـامر

ويعدو على الكمت العناجيج ضامر وإن الجياد المشبعات ضوامر

يجدد دين قد بدا في غرابة وعاد غريبا والغريب يسافر

فهذه حال القائد الذي لا يبيت ليله في سهر ومنادمة بل هو ممن تتجافى جنوبهم عن المضاجع في العبادة أو الإعداد للحرب حيث يطلب تجديد الدين وإحياء

---

[١] – المصدر السابق، ص٩٢.

الشريعة بعد ان درست معالمها وانتشر الجهل بالدين فأخذ على عاتقه ذلك الهدف العظيم، ولكنه قد يحتاج للحرب في سبيل ذلك فهو يعد جيشه بالمقاتلين والخيل الضامرة التي تتحمل السير ودخول المعارك.

ثالثاً: جوانب فنية في الرسالة الشعرية عند شعراء عسير

١-الافتتاح:

تنوعت طرائق الشعراء في افتتاح رسائلهم الشعرية، ولم يكن هناك نظام واحد يسيرون عليه فيأتي الافتتاح بذكر نعم الله وآلائه على المرء وحسن تدبيره له وشكره على كل أفضاله، نحو:

الحمد لله عظيم الشأن ذو الجود والنعما والسلطان[١]

أحمده بحمـــده لنفسه مكرِّرا تسبيحه بقدســـه

ومثنيـــا عليه بالثناء الجـــامع الصفات والأسماء

وهذه الأرجوزة بعث بها محمد الحفظي إلى الشيخ حسين ابن غنام[٢] — رحمهم الله فيها استجابة وتأييد لأئمة الدولة والدعوة ومثنيًا عليهم ومؤيدًا لهم[٣]. وفي هذا الافتتاح تظهر السمة الخطابية وكأن المخاطب يتلقى خطبة، حيث البدء بالحمد والثناء على الله بما يحمد به نفسه ويثني عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى. وهذه التقريرية والخطابية استشعار من المرسل بعناصر الرسالة الأخرى حيث يخاطب شيخًا

---

(١) – "شعاع الراحلين"، ص١٤٢.

(٢) – حسين بن غنام (...– ١٢٢٥هـ)، الأحسائي المالكي مذهبًا التميمي نسبًا ولد بالمبرز من مدينة الأحساء وتلقى العلم في الأحساء وهاجر إلى الدرعية ولازم الإمام عبد العزيز بن محمد والشيخ محمد بن عبد الوهاب. "عبق الراحلين"، هامش ص٢٣٧.

(٣) – انظر، "مجموع في تاريخ عسير"، ص١١٢.

عالما بالشريعة وشاعر يحسن النظم وهذه سمة تداولية واضحة في الأرجوزة على ما يتبدى فيها من سمة التعليم.

وقد يكون الافتتاح بشيء من الحكمة والتأمل في مصائر الأحوال وتقلباتها، يقول محمد بن احمد الحفظي:

شهدت عدول شواهد الأحوال ومقدمات نتائج الأشكال[١]

إن المعالي والعوالي والعـــــلا في العــلم بالله العلي المتعال

يتبدى من هذا الافتتاح أن الشاعر يريد إقناع متلقيه من خلال عرض تأمله في سير الأحداث وأحوال الناس ويستخلص من ذلك أن الفوز والفلاح في العلم بالله وطاعته واتباع هديه. ويرسلها على طريقة الحكمة لعلها تفيد متلقيه وتوقع الأمر عنده موقع الحقيقة التي يعمل بها ويتخذها نبراسًا وهاديًا له.

و يفتتح محمد بن أحمد الحفظي إحدى رسائله الشعرية إلى الأمير طامي بن شعيب[٢]بالدعاء والابتهال أن ينصره الله ويؤيده على أعدائه، يقول:

لا زال عدلك بين الناس مذكورا ولا برحت على الأعـــــداء منصورا[٣]

ودمت تقبل من حكم الشريعة ما قد كان قبلك في البلدان مهجورا

وقد يكون الافتتاح بذكر البرق والمطر وما يثيره ذلك من حنين ولوعة في نفس من يراه خاصة إذا كان بعيدًا عن أهله وبلده، نحو قول أحمد الحفظي الأول:

---

(١) – "نفحات من عسير"، ص٧٤.

(٢) – طامي بن شعيب المتحمي أخذ الإمارة في عسير بعد مقتل أخيه عبد الوهاب وكان هو وابن عمه في النسب ووزيره وساعده في الإمارة، أسر في أحد الحروب بالمخلاف السليماني(جازان) سنة ١٢٣٠هـ، وسلم إلى محمد علي باشا حيث أرسله إلى مصر فإستانبول وهناك قتل. انظر، "مجموع في تاريخ عسير"، ص١٩١-١٩٧. وانظر، "عبق الراحلين"، هامش ص٢٥٣.

(٣) –"مجموع في تاريخ عسير"، ص ١٩٤.

وميض البرق بالزور أشجاني وحادي العيس قد أشجى جناني[١]

وقد يكون الافتتاح بالغزل على طريقة الشعراء القدماء، يقول عبد الخالق بن إبراهيم الحفظي[٢] في رسالة إلى ابن عايض على إثر عقد صلح بينه وبين الأتراك يقول:

أمن ذكر ذات الخال والعنبر الند مهـــــــذبة الأطراف كاملة القد[٣]

معـــودة لينا وحسن ودادهـــا مزجت لها دمعا تسلسل من خدي

حيث يلحظ انتماء هذا المطلع إلى الطريقة التقليدية في الشعر العربي فالبدء بالاستفهام ثم ذكر محاسن المرأة وذكر الدمع والشجن غير أن هذا المطلع يوحي ببيئة حضرية لها معاييرها في الجماليات الخاصة بالمرأة فيمدح محبوبته بالتهذيب والوداد ولين المعشر، هذه الصفات التي تشير إلى بيئة حضرية.

كما بدأ الشعراء رسائلهم الشعرية في الرثاء والتعزية بالوقوف على بعض المعالم وذكر أهلها الذين كانوا معالم يهتدى بها وأئمة يقتدى بهم، ومن ذلك قصيدة أرسلها محمد بن أحمد الحفظي إلى الدرعية تعزية ورثاء في الإمام عبد العزيز بن محمد، يقول في مطلعها:

خليلي هذي روضة الحق فاعدلا قلوصيكما في طلها وطلولها[٤]

وطوفا نواحيها طواف زيارة وعوجا مغاني أهلها وحلولها

---

(١)- "نفحات من عسير "، ص ٣٦.

(٢) – هو عبد الخالق بن إبراهيم الزمزمي بن أحمد الحفظي (١٢١- ١٢٨٤هـ)، ولد ببلدة رجال ألمع، تلقى العلم على يدي والده، رحل إلى أبي عريش لطلب العلم. "نفحات من عسير "، ص١٣٤.

(٣) – المصدر السابق، ص٢٤٦.

(٤) – "نفحات من عسير "، ص٧١

ويلاحظ أن هذه الافتتاحات قد احتوت على أهم عناصر (الرسالة) بالمفهوم التواصلي، فالمرسل معروف ومحدد، تتجه إليه الرسالة ابتداءً، والمرسل إليه كذلك محدد ومعروف مسبقًا عند المرسِل، ثم الرسالة التي هي استجابة لرسالة وصلت إليه من قبل.

٢- الختام:

يختم الشعراء رسائلهم عادة بالدعاء أو الوصية أو بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلم أو بذلك كله، ومن ذلك قول الشاعر محمد بن أحمد الحفظي في رسالة إلى الإمام سعود بن عبد العزيز:

واسألك اللهـــــمَّ تمكين ديننا وتوهين من عادوا وقطع أياديها[١]
وألِّف قلوب المسلمين جميعهم على البر والتقوى وطاعة واليها
وأوصيكم بذل الدعـــاء مكررًا وبالعلم والأعمال نفسي أوصيها

ويلحظ في هذا الختام الدعاء بتمكين الدين ونصر الدولة وقادتها القائمين بأمره والدعاء بهزيمة وكبت أعدائهما، كما يدعو للمسلمين جميعًا بتأليف القلوب على البر والتقوى، ثم لا ينسى أن يحث على الدعاء وبالعلم والعمل معاً. وقد تكون الوصية بتقوى الله وتحكيم القرآن والسنة النبوية ثم الصلاة والسلام على الرسول وأصحابه الكرام، نحو قول محمد بن أحمد الحفظي في رسالة موجهة إلى الإمام سعود بن عبد العزيز بعد انتصاره في بعض معاركه، يقول:

وأوصي بتقوى الله نفسي وإخوتي وتحكيم خير الخلق في كل ما يجري[٢]
عليه صلاة الله مـا ذر شـــارق وآل كـــــــرام مع صحابته الغـــر

---

[١]- المصدر السابق، ص٨٠.

[٢] - المصدر السابق، ص٦٤.

ويختم الشعراء رسائلهم الشعرية -غالبًا- بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، نحو قول عبد الخالق الحفظي:

وصلاة الله تغشى المصطفى وســـــلام منه وافٍ أفضل[١]

وجميع الآل والأصحاب ما دام سحب الغيث هام يهطل

وقد يختم الشاعر رسالته بمثل هذه الطريقة، حيث يصبح الافتتاح والختم واحدًا في طريقة تشبه ما يعرف حديثًا بالقصيدة المدور حيث يعود الشاعر حيث بدأ.

وبدء نظامي والختام اسم ربنا تعالى عن الإشراك والضد والند[٢]

٣- ذكر الرحلة والراحلة:

إن مرسل الرسالة في حاجة إلى ساع يوصلها على المرسلة إليه وبطبيعة الحال فلقد كانت تلك الفترة لم يكن وصول الرسالة بالأمر الهين خاصة بين مناطق متباعدة كما هو الحال بين المنطقة الجنوبية ومنطقة فقد كانت الطرق صعبة المسالك ومليئة بالمخاطر، يقول الشيخ محمد بن أحمد الحفظي في رسالة له إلى الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود يبايعه فيها ويذكر بعض أحوال البلاد، وقد تتبع طريق الرحلة وصاحبها من انطلاقه من بلاده في تهامة عسير حتى الدرعية سائرًا في ذلك على نهج القصيدة العربية الجاهلية في ذكر الرحلة والراحلة ومشقة الطريق، يقول:

وها أنا من عجــزي سأرسل نائبا يبايع عني ثم يعطي له عهـــــــد[٣]

فيا أيها الغادي على ظهر مضمر من الصافنات الجيدات على الجرد

كأن الحصى بين الحــوافر جذوة تـُنَاثر جمـــــرًا والحباحب في وقد

يسير على اســم الله لا شيء غيره فلا نفع أو ضر ينالك من عـــــبد

---

(١) - " شعاع الراحلين"، ص١٢٣.

(٢) - "نفحات من عسير "، ص٤٨.

(٣) - المصدر السابق، ص٤٦.

ويخرج من أرض بها حل جـــدنا وكان بحمـــــد الله يهدي ويستهدي

ثم يذكر مسير رسالته من تهامة إلى السراة وقد عَمّ الأمن وظهر الاستقرار وأخذ الناس يبتعدون عن كل ما من شأنه مخالفة أمر الدين والدولة، فهذه القبائل والقرى قد استقرت فلا ظلم ولا عدوان، والطرق آمنة؛ لأن الجميع قد أجاب نداء الحق الذي جاءت به دولة آل سعود وقد جعلوا من هدي الإسلام مرشدا ودليلا، يقول:

وخذ أيها الغادي السراة وسربها ولا تخش من عاتٍ ولا صايل فهد[1]

فشهران فيهم توبة وهـــــداية وقد ألجمـــــــوا الخيل فلا تعدي

ويقول:

وراشة أيضًا هـــــكذا وعبيدة أجابوا الذي يدعوهمو من ربا نجد

فسر بينهم واسلك سبيل سلامة إلى بيشة وانزل بلاد بني المهـدي

وتصل الرحلة إلى وادي الدواسر الذين أنابوا وأوفوا بعهدهم والولاء الذي قطعوه على أنفسهم، يقول:

وجزها إلى وادي الدواسر إنهم أنابوا وتابوا واستقامـوا على العهد

ثم تصل الرحلة إلى العارض، وهو منتصف نجد حيث تجد الدرعية ومركز المجد والقوة فهم مقصد الشاعر ومناه، يقول:

وفي العارض المنقاد خيم وحط في جـوانبه واشكر إلهك بالحمـــد

فمنه ترى الدرعـية القصد والمنى ومن حل فيها هم مناي وهم قصدي

ويصف الراحلة بأنها من الهجن البوازل التي تتحمل السفر وتعين راكبها على مبتغاه، يقول الشيح محمد بن أحمد الحفظي في رسالة إلى أئمة الدعوة:

---

[1] – المصدر السابق، ص٤٧.

ويا أيها الغادي على متن بازل من الهجن اللاتي تحن لحاديها[١]

كما وُصفت الناقة بالكوماء ذات القتب المعدة للسفر، يقول

ويا أيها الغادي بكوم ومقتب تدق النوى أخفافهـــا والحوافر[٢]

تؤم ربى نجد سقى أرضه الحيا وفي عارض من عارض الخير ماطر

ومع أن الناقة المعدة للسفر لا توصف بالكوماء إلا أن المعنى يتضح، فهو يصف ناقة قوية معدة إعدادًا جيدًا للسفر في قافلة بها النوق والخيل التي تسير نحو مبتغاها في العارض النجدي. وفي موطن آخر توصف رواحله بـ"النجائب"، فيقول:

إن النجائب سارت في مساريها وقد حداها من الركبان حاديها[٣]

وكل ســـــار وسيار له أرب ونية في صميم القلب ينويهـــا

فهذه النوق (النجائب) تسير في طريق رحلتها وقد أخذ الحداة في تنشيط القافلة بحدائهم؛ ليصل كل مسافر منهم إلى مبتغاه ونيته التي قد أضمرها في قلبه. وغاية الشاعر تكشفها رسالته التي يبعثها مع هؤلاء المسافرين. حيث يؤيد الدعوة ويثني على أئمتها وقادتها ويشير إلى مبادئها وأصولها وأهميتها.

كما وصفت الراحلة بـ "البازل"، نحو:

ويا أيها الغادي على متن بازل من الهجن اللاتي تحن لحاديها[٤]

يجوب الموامي فدفدًا بعد فدفد ويسري الليالي قاطعا لفيافيها

فهذه الرواحل التي تتجسد صورتها في هذه الرسائل الشعرية بين المرسل والمستقبل تستعيد صفات الراحلة في الشعر العربي القديم. فالحالة متشابهة بين الحال قديماً

---

(١) – "مجموع في تاريخ عسير"، ص ٩٩ – ١٠٠.

(٢) – "نفحات من عسير "، ص٩٣.

(٣) – المصدر السابق، ٥٤.

(٤) – المصدر السابق، ص٧٩.

وبين الحال التي كان عليها هؤلاء الشعراء في منتصف القرن الثالث عشر. فلا غرابة أن تجيء أوصاف الراحلة واحدة، وتبدو طريق الرحلة وطريقتها متشابهة.

٤- جودة الرسالة:

يتحدث الشعراء عن جودة رسائلهم ونظمهم بأشكال متعددة فمنهم من يعتذر عن التقصير في رسالته، نحو قول محمد بن أحمد الحفظي، في رسالة شعرية بعثها عام ١٢٢٠ إلى الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد، مثنيًا عليه في نشر الدين والدفاع عنه، ومتناولا فيها التنويه بشاعرية ابن غنام ومعتذرا عن التقصير في النظم، يقول:

وقل لابن غنـــــام ولله دره وجازاه ربي في لطائف يبديها[١]

تفضل وغض الطرف عن هذه الحصى فإن الهدايا لائقات بمهديها

ويقول محمد بن أحمد الحفظي في الاعتذار عن تقصيره في النظم وعن عدم بلوغه ما يصبو إليه من جودة الشعر، وكل ذلك الاعتذار ما هو إلا تواضع من الشاعر ومحبة في إظهار ذلك التواضع أمام شخصية مهمة من الممدوحين أو المشايخ، يقول محمد بن أحمد الحفظي:

خذه مكررة المعاني حررت عن صفو ودٍ قد حوته أضلعي[٢]

فاقبل ركيك نظامها وتولها واستر قبيح عـــــوارها المتنوع

وقد يتحدث الشاعر المرسل إليه عن جودة الرسالة الشعرية القادمة إليه فيصف حسنها وحسن موقعها من نفسه، يقول أحمد الحفظي الأول رداً على رسالة شعرية لابنه محمد، يقول:

أشمس أشرقت أم كوكبان أنور البدر في الظلماء هداني[٣]

---

(١) - المصدر السابق، ص٨٠.

(٢) - "شعاع الراحلين"، ص٨٩.

(٣)- "نفحات من عسير"، ص٣٧.

أم الصافي اللطيف سقا رياضًا بخلجان السواقي والسواني

....

أم افتر الزهور وبان غصن من الكثبان بين الخـــــيزران

بلى قد جاءني طرس كريم فأشفـــــــاني وجلى كل راني

نظاـــــم كله در نضيد ونثر سجـــــــعه در اللبان

فهذا المستقبل للرسالة يجد فيها حسناً وبهاءً. فهي مثل الشمس في إشراقتها وضوئها، ويصف هذا النظم بأنه مثل الندى الذي يقع على الأرض أو الأوراق فيهبها نضارة في عين الرائي. إنها مثل الزهرة الجميلة في خميلة من الأشجار. وكلمات رسالته مثل الدر المنظوم الذي تتزين به الحسناء فيزيدها جمالاً إلى جمالها. ويلحظ في هذا الرد كثرة التشبيهات المتتابعة التي تصف جمال الشعر ووقعه في النفس؛ ولعل ذلك يرجع إلى ما يحمله هذا الأب من فرحة وشوق لتلقي رسالة ابنه وهي تحمل الشوق والسؤال، بل الدعاء بسرعة الأوبة إلى حيث الأهل والمقام. وقد يكون ذلك لتشجيع الابن على الاستمرار في التراسل وشحذ قريحته الشعرية وتنميتها. ومن جانب الأب فقد يكون ذلك لإبراز البراعة في النظم وتنويع العبارة وإيراد المعاني الكثيرة في باب واحد؛ للإيضاح وإيقاع المعنى في نفس المتلقي.

إن إشارة الشاعر إلى فخامة قصيدته أو الاعتذار عن التقصير فيها أو حديث المتلقي عن رسالة صاحبه ما هو إلا سعي من المرسِل إلى استمالة مخاطبيه إلى رسالته. وهي في المقام الأول رسالة لغوية عليها أن تؤدي وظيفتين هما: كشف المعنى وتزيينه، حيث يكون اللفظ إناءً يحتوي المعنى. وذلك الإناء عليه أن يشف عن المعنى بسرعة وسهولة مع تلوينه وتحسينه. وذلك أن يكون اللفظ جميلاً في نفسه حتى ينعكس جماله على المعنى، أي يُجمِّل بجماله المعنى المعروض فيه. وذلك يقتضي أن

يكون اللفظ مستعملًا في احتواء المعنى ذاته الذي وضع أصلًا لاحتوائه أو في احتواء مثيله الذي استعير له، كما يقتضي ذلك الملاءمة بين اللفظ والمعنى المدلول عليه وإلاّ أدى ذلك إلى تشويه المعنى وإحالته إلى النقيض من إرادة المتكلِّم والمخاطَب.[1]

[1] – انظر، عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، ج٢، ص٤٣، ٤٤.

رابعاً– الخاتمة والنتائج:

كشفت الدراسة لخطاب الرسالة الشعرية عند شعراء عسير عن أن هذا الخطاب يتناول قضايا عامة مشتركة وينطلق من منطلقات فكرية كذلك مشتركة، فالمرسل لا يتكلم كلامه الخاص بقدر ما هو ناطق بكلام جماعي مشترك. وهذا يعني أنه ليس موجودًا بذاته في نص الكلام، بل هو موجود بغيره باعتبار أن البعد الفكري هنا ليس فرديًّا، بل هو بعد جماعي في الأساس، فالذات المتكلمة هنا تسير وفق النظام أو التقاليد الراسخة وذلك لا يؤسس كلاما جديدا بقدر ما يكون وفق النظام البياني الجاهز. ومن هنا خرجت الدراسة ببعض النتائج ومن أهمها:

– الشفاهية التي تعتمد على حضور صوت المتلفظ، وصياغة خطابه اعتمادًا على ضمائر الحضور باعتبارها مركز المقام الإشاري.

– التوجيه المباشر، فخطاب الرسالة موجَّهاً توجيهاً مباشرًا من متلفظ بعينه على مخاطَب محدد.

– التبعية المتبادلة المرتبطة بثنائية المرسل والمخاطب واللفظ والمعنى والمقام والمقال.

– أحادية مواقع التلفظ حيث المتلفظ يتحدث من موقع انتمائه إلى عالم التلفظ السائد وتبعيته له مراعياً الحال السوسيو – ثقافي للمخاطبين.

المصادر:

- أحمد بن محمد الحفظي: "عبق الراحلين- تراجم موسعة لبعض علماء آل الحفظي-، دار الطرفين، الطائف، د.ط، د.ت.

- الحسن بن علي الحفظي، "مجموع في تاريخ عسير"، ت: علي بن حسن الحفظي وعلي عوض آل قطب، نادي ابها الأدبي، ط١، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

- عبد الرحمن إبراهيم زين العابدين الحفظي، " شعاع الراحلين"، جمع وتحقيق عبد الرحمن إبراهيم زين العابدين الحفظي، ط١، نادي أبها الأدبي، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م.

- محمد بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، "نفحات من عسير "، تنسيق وإخراج ونشر: عبد الرحمن بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، مطابع عسير، أبها، د. ط، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م.

المراجع:

- أحمد ابن فارس: "معجم مقاييس اللغة"، ت: عبد السلام هارون. دار الفكر، القاهرة ١٩٧٩م.

- أيوب بن موسى الكفوي: "الكليات"، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٤٧٦. وانظر، احمد مطلوب: " معجم النقد العربي القديم"، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط،١٩٨٩هـ.

- بهاء الدين محمود مزيد، أدوات تحليل الخطاب، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج١/ ٢٥، ع٩٧، سبتمبر/٢٠١٦م.

- رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨م.

- ريهام محمد القاضي، تداولية النص الشعري (دراسة تطبيقية على مقطوعة ابنة الليل لشلومو بن جبيرول)، مجلة رسالة المشرق، جامعة القاهرة، مج٢٩، ع١,٤، ٢٠١٤م، ص٦٣ – ١٠٠.
- سعاد عبد الله أبو ركب: "الرسائل الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري"، (رسالة ماجستير)، جامعة مؤتة، ٢٠٠٥م.
- صالح بن رمضان: "الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم – مشروع قراءة شعرية–"، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- عبد الواسع الحميري، نظرية الخطاب – مقاربة تأسيسية–، عناوين، القاهرة، ٢٠٢٣م.
- مجدي وهبه وكامل المهندس: "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

Almasadir walmarajie:

- Ahmad abn faris: "muejam maqayis allughati", ti: eabd alsalam harun. dar alfikri, alqahirat 1979m.
- 'Ahmad bin muhamad alhafziu: "ebaq alraahilayni- tarajim muasaeat libaed eulama' al alhafzii- ,dar altarafayni, altaayifi, du.ta, da.t.
- 'Ayuwb bin musaa alkafawi: "alkilyat", t: eadnan darwish wamuhamad almasri, muasasat alrisalati, ta2, 1419h/1998m, sa476. wanzur, aihmad matluba: " muejam alnaqd alearabii alqadimi", wizarat althaqafat wal'iielama, baghdad, du.ta,1989h.
- Baha' aldiyn mahmud mazida, 'adawat tahlil alkhatabi, majalat fusuli, alhayyat almisriat aleamat lilkitabi, mij1/ 25, ea97, sibtambar/2016m.
- Alhasan bin ealii alhafzii, "majmue fi tarikh easir", ti: eali bin hasan alhafzi waeali ewad al qutb, nadi abha al'adbi, ta1, 1438h/2017m.
- Ruman yakibsun, qadaya alshieriat, ti: muhamad alwali wamubarak hanuza, dar tubaqal, aldaar albayda', ta1, 1988m.
- Riham muhamad alqadi, tadawuliat alnasi alshierii (dirasat tatbiqiat ealaa maqtueat aibnat allayl lishlumu bin jubirul), majalat risalat almashriqa, jamieat alqahirati, mij29, ea1,4, 2014m, sa63 - 100.
- Suead eabd allah 'abu rakbi: "alrasayil alshieriat fi al'andalus fi alqarn alkhamis alhijrii", (risalat majistir), jamieat mutata, 2005m.
- Salih bin ramadan: "alrasayil al'adabiat wadawruha fi tatwir alnathr alearabii alqadim - mashrue qira'at shieriatin-", dar alfarabi, birut, ta1, 2001m.
- Eabd alrahman 'iibrahim zayn aleabidin alhafzii, " shueae alraahilayni", jame watahqiq eabd alrahman 'iibrahim zayn aleabidin alhafziu, ta1, nadi 'abha al'adbi, 1403hi- 1982m.
- Eabd alwasie alhamyri, nazariat alkhitab - muqarabat tasisiatin-, eanawinu, alqahirati, 2023m.
- Mujdi wahabah wakamil almuhandisi: "muejam almustalahat alearabiat fi allughat wal'adbi", maktabat lubnan, bayrut, ta2, 1984m.
- Muhammad bin 'iibrahim zayn aleabidin alhafziu, "nfahat min easir ", tansiq wa'iikhraj wanashra: eabd alrahman bin 'iibrahim zayn aleabidin alhafzii, mutabie easir, 'abha, da. ta, 1393h - 1974m.
- Abn manzurin, lisan alearabi, dar sadir, bayrut, ta3, 1414hi.